علم النفس والاجتماع

د. مهدى محمد القصاص

كلية الآداب – جامعة المنصورة

٢٠١٣ – ٢٠١٤م

مقدمة

الإنسان كائن اجتماعي، يعيش في جماعة، يتأثر بها ويؤثر فيها من خلال عملية مستمرة من التفاعل. ومنذ بدأ الخليقة؛ عندما خلق الله "عز وجل" آدم "عليه السلام"، لم يتركه يحيا وحده، بل خلق من ضلعه حواء؛ ليأنس إليها ويعيش معها، ثم خلق من بعدهم ذرية كثير.

والإنسان في حياته الاجتماعية، يقوم بتنظيم تفاعلاته مع الآخرين (من الأسرة والأقارب والجيران ومجتمعه الصغير... وتستمر هذه الدائرة في الاتساع حتى تصل للعالم كله) وفقا لرؤاه الخاصة التي تتأتى من منظومة القيم التي ينشأ في ظلها. وتتأثر هذه المنظومة القيمية الشخصية – بل إنها تنبع – من المنظومة القيمية الأعم الراسخة في المجتمع التي تقوم على أساس الاعتقاد السائد في المجتمع، والذى يتأتى من عوامل الدين والثقافة والتاريخ.

ففى العالم الغربى، هناك حالة واضحة من لفظ الدين والإيمان بالمادة وحدها، والتى جاءت على شكل موجات متتالية في نظريات اجتماعية تؤصل لتلك الرؤي، لتجعل منها ممارسة شخصية على مستوى الفرد. فكانت الوضعية والسببية والماركسية... وغيرها من الرؤى، وصولا للموجات الحديثة للعولمة والحداثة وما بعد الحداثة.

وعلى النقيض من ذلك، كان الدين عامل حسم في تاريخ وحياة الشعوب العربية والإسلامية، وموجه أساس ودافع لها. لذلك، فقد حاولت في هذا الكتاب

عرض لوضع علم الاجتماع؛ من حيث نشأته وتطوره ورواده المؤسسين وموضعه الراهن.

وفى سياق محاولتي لعرض تلك الرؤى المتباينة، فقد بدأت بلمحة تاريخية عرضت فيها للجذور الأولى لهذا العلم، والتي جاءت على يد علماء مسلمين مثل ابن خلدون والفارابي. ثم جاء بعد ذلك عرض النظريات السائدة في هذا (وهى رؤى غربية مادية في جلها، وذلك لحقيقة أن هذا العلم في العصر الحديث نشأ وترعرع في بيئة غربية محضة). ولا يعنى عرضى لتلك النظريات والرؤى الغربية المتنوعة إيمانى بها ولا اتباعى لها؛ بل إنه جزء من تاريخ العلم أعرض له بسلبياته وإيجابياته وأحاول قراءته بعين ناقدة إن تسنى لذلك.

ويمكن القول أن لسيكولوجية النمو هدفين أساسين : أولهما الوصف الكامل والدقيق قدر الإمكان للعمليات النفسية عند الناس في مختلف أعمارهم واكتشاف خصائص التغير الذي يطرأ على هذه العمليات في كل عمر ، وثانيهما : تفسير التغيرات العمرية (الزمنية) في السلوك أي اكتشاف العوامل والقوى والتغيرات التي تحدد هذه التغيرات ، ثم أضيفت أهداف أخرى تتصل بالرعاية والمعاونة والتحكم والتنبؤ ، أو باختصار التدخل في التغيرات السلوكية.

المنصورة

في ١٠ سبتمبر ٢٠١٣

د. مهدي محمد القصاص

الفصل الأول
نشأة علم الاجتماع

أولا – لمحة تاريخية

ثانيا – الفكر الاجتماعي الإسلامي

ثالثاً – الجذور الفكرية لعلم الاجتماع

أولاً – لمحة تاريخية

إن التجمعات الإنسانية الأولى التي اتخذت شكل القبائل والعشائر والأمم والمجتمعات هي جزء متأصل في ثقافة البشر ودلالة قوية على اعتماد الناس على بعضهم البعض في تخطى المشكلات والعقبات وتحقيق التقدم والازدهار. فالاستعانة بالآخر ضرورة من ضرورات البقاء وأساس من أسس الوجود الإنساني على كوكب الأرض، الذي يأخذ شكل المنفعة المتبادلة بين الأشخاص من خلال التبادلات التجارية أو غيرها من أشكال التبادلات الاجتماعية التي تحافظ على وحدة الصف وتماسك المجتمع، وهى عادة ما تأخذ الشكل الطوعي تحت مظلة الجماعة.

ومنذ ذلك الحين، والبشر يلاحظون ويتأملون المجتمعات والجماعات التى يعيشون فيها. ومع ذلك فعلم الاجتماع علم حديث، لا يزيد عمره على قرن واحد من الزمن وضعه أوجست كونت (أبو علم الاجتماع) فى تصنيفه للعلوم – من الناحيتين المنطقية والزمنية – فى مرتبة تالية على العلوم الأخرى، بوصفه أقلها عمومية وأكثرها تعقيداً على الإطلاق. كما لاحظ أحد علماء الأنثربولوجيا المحدثين أن علم دراسة المجتمع البشرى لا يزال بعد فى مرحلة طفولته الأولى. وبالرغم من ذلك، فإننا يمكن أن نجد فى كتابات الفلاسفة، والمفكرين الدينيين، والقانونيين فى جميع الحضارات وعلى مدى جميع العصور بعض الملاحظات والأفكار التى تتصل بعلم الاجتماع الحديث(١).

وقد ظهرت الإرهاصات الأولى لعلم الاجتماع فى أحضان الدراسات الفلسفية عند القدماء، فبدت عند أفلاطون (٣٤٩ ق.م) فى الجمهورية والسياسي والقوانين. كما تمثلت عند أرسطو (٣٢٢ ق.م) فى نظرياته فى السياسة والاجتماع فى كتاب السياسة. وتجلى التفكير الاجتماعى فى دراسات فلاسفة المسلمين من الفارابى (٩٥٠م) فى السياسات المدنية وآراءه في أهل المدينة الفاضلة، وابن خلدون (١٤٠٦) فى مقدمته، وقد أسماه علم العمران البشرى. وكان هدفه كشف القوانين التى تفسر الظواهر الاجتماعية، وليس تحقيق الإصلاح الاجتماعى كما كان الحال عند أفلاطون وأرسطو. إذ أخذ يدرس العمران ونظمه ويرجع الظواهر إلى قوانين ثابتة دون أن يردها إلى الأهواء والمصادفات، أو يرجعها إلى القوى الخفية إو إرادة الأفراد، فكانت حتمية الظواهر. ثم جاء أوجست كونت (١٨٥٧)، فميز بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الفردية، وجعل الأولى موضوعاً لعلم واقعى وضعى يعالج بمناهج الملاحظة الحسية وأطلق عليه علم الاجتماع [٢].

وعلم الاجتماع يهتم بكل ما يمكن أن يكون موضوعاً للتفكير عند الحديث عن المجتمع. لذا فإنه كان موجوداً بشكل أو بآخر من قبل أوجست كونت (أبو علم الاجتماع) بوقت طويل، حيث كانت هناك اجتهادات عامة يطلق عليها القانون الطبيعي Natural Law، كما كان هناك البحث في إنتاج وتوزيع الثروة التى تشكل مضمون الاقتصاد. وقد صارت تلك التخصصات من معالم العالم المعاصر منذ قيام النهضة الأوروبية. وبالعودة للعصور القديمة، نجد أن العديد من إشكاليات علم الاجتماع قد دخلت ما أسماه أرسطو بالسياسة.

فعلى سبيل المثال كان المؤرخون المهتمون فقط بالسرد – دون حتى توضيح ما يكتبوه – مضطرين بشكل أو بآخر لاستخدام علم الاجتماع في دلالاتهم فيما نسميه الآن بالسياق الاجتماعي أو البيئة[٣].

ويمكن إرجاع المرحلة التمهيدية لعلم الاجتماع (أو مرحلة ما قبل علم الاجتماع Pre-Social) إلى فترة طولها نحو مائة عام تمتد تقريباً من ١٧٥٠ حتى ١٨٥٠. أو لعلنا نقول أنها تمتد منذ نشر مونتسيكو كتابه "روح القوانين" حتى ظهور أعمال كونت وصدور الكتابات الأولى لهربرت سبنسر. أما الفترة التى تشكل فيها علم الاجتماع كعلم مستقل، فتشغل النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ويمكننا أن نتبين من العرض الموجز لأصوله بعض السمات التى اتصف بها علم الاجتماع فى بداياته الأولى. فقد كان أولاً ذا طابع موسوعي، إذ كان يهتم بالحياة الاجتماعية للإنسان فى مجموعها، وبالتاريخ بأكمله. ثم كان ثانياً تطورياً، وذلك تحت تأثير فلسفة التاريخ، مدعمة بواسطة نظرية التطور الحيوي، فكان يسعى إلى تحديد المراحل الرئيسية للتطور الاجتماعي. ثم صار الباحثون يعتبرونه علماً وضعياً له نفس طابع العلوم الطبيعية. فقد كانت العلوم الاجتماعية تفهم بصفة عامة إبان القرن الثامن عشر على أنموذج الفيزياء، أما علم الاجتماع فكان يفهم فى القرن التاسع عشر على أنه موذج علم الحياة. ويبدو ذلك واضحاً فى الاهتمام الكبير بموضوع التطور الاجتماعى، وفى التصور الذى كان سائداً عند الأغلبية والذى كان المجتمع بمقتضاه كائناً حياً. ويبدو هنا الاهتمام العام بالطابع العلمى لعلم الاجتماع [٤].

كما كان هناك من قبل علم الاجتماع عدد من الحركات قبل الاجتماعية pre-sociological movements تصدى لها باحثون قبل بداية التوجه السوسيولوجي . فالباحث الاجتماعي قد ينظر للمسئولين عن إلغاء الرق فى المستعمرات البريطانية على أن لهم رؤية سوسيولوجية . كما أظهرت دراسة " تشالمرز" Chalmers الموضوعية عن "التبعية فى أبرشية أدنبرة" وسياسته التى فاقت عليها هذه الدراسة توجها سوسيولوجيا . و" بينيل" Pinel الذى توصل فى دراسته عن نتاج الطرق التقليدية فى علاج الجنون أنه لابد من الغاء القيود من على الشخص المجنون وتبنى أساليب انسانية فى علاجه والتفاعل معه ، قد تصدى لهذه المشكلة كما كان سيفعل أن عالم اجتماعى معاصر . " بنكاريا " Beccaria الذى واجه بصراحة آثار الطرائق القديمة فى علاج الجريمة واقترح وسائل أخرى تقوم على اساس دراسة النتائج ، يمكن النظر إليه كعالم اجتماع.

وما يلفت الانتباه فى الأمثلة السابقة هو أن كل هؤلاء الرجال قد تبنوا اتجاهات جديدة فى دراسة المشكلات الاجتماعية . فقد رفضوا القبول بالتوجهات والسياسات التقليدية . وتشكلوا فى مدى فاعلية السياسات السائدة . كذلك فقد سعوا لفهم العمليات التى أدت للنتائج التى يلحظونها . وهذا ما يجعل مثل هذه الارهاصات توصف على أنها نهج قبل سوسيولوجى لعلم الاجتماع[٥].

فضلاً عما سبق، فلقد ارتبط علم الاجتماع فى بداية ظهوره ارتباطاً قوياً بالتاريخ، وعلى الأخص فلسفة التاريخ؛ التى من خلالها صاغ بعض المفكرين "قوانين" تحكم تطور الجنس البشرى. فعلى سبيل المثال نجد "فيكو" Vico

(١٦٦٨-١٧٤٤) فى مؤلفه "العلم الجديد" (١٧٢٥) يذهب إلى أن التطور الاجتماعى يعد عملية دقيقة يمكن فهمها واستيعابها، وأن كل الحضارات الإنسانية لابد وأن تمر بمراحل ثلاثة أساسية. وتتابع هذه المراحل بانتظام بحيث تتجه هذه الحضارات من المرحلة الأدنى إلى المرحلة الأعلى. أما "فيرجسون" Ferguson (١٧٢٣-١٨١٦)، فقد أشار إلى "أن التفكير فى حد ذاته يعد مهنة فى عالم يخضع لتقسيم العمل" [٦].

ويعد تاريخ علم الاجتماع مدخل دائم لعلم الاجتماع فى الوقت الراهن. فالماضى يحتل درجة الأفضلية، لما اتسم به علماؤه من جدية وعمق، ولما تميزت به موضوعاته من العمق وجدارة البحث. الأمر الذى جعله فى نهاية الأمر علماً راسخاً له مكانته فى المجتمع الأكاديمى[٧].

وهنا قد تثار تساؤلات على شاكلة: ما هو تاريخ علم الاجتماع؟ ولماذا هو مهم؟ وطرح هذه التساؤلات لا يعنى بالضرورة الاجابة عليها، بقدر ما يعنى التفكير فى متضمناتها. فتاريخ علم الاجتماع غالباً ما ينظر إليه على أنه تاريخ المؤسسات. وبتفسير هذا السؤال على هذا المحمل، أننا نهتم فى عملية التأريخ تلك بوضع تواريخ وأسماء علماء الاجتماع ومؤلفى المقالات والكتب وتواريخ نشرها وعرض للمعاهد البحثية والمنشورات المهنية، خاصة الصادرة عن المؤسسات فى البلاد التى ظهر فيها علم الاجتماع فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

وبطبيعة الحال، فإن تلك البيانات والمعلومات ذات أهمية فى استكمال الصورة التاريخية لهذا العلم، لكن بالرغم من ذلك هناك تاريخ لعلم الاجتماع

بخلاف هذه العناصر، تاريخ نعرفه جيداً ونجتمع على القبول به ونسعى للإضافة عليه لنجعله أكثر تكاملاً. أى أن هناك قاعدة معيارية عامة متفق عليها للنظر لتاريخ علم الاجتماع.

بيد أنه، يمكن النظر فيما وراء هذه القاعدة المعيارية العامة وحقائقها الراهنة. نظرة تدل على أننا معنيين ليس فقط بتاريخ هذا العلم ونشوئه وتطوره، بل أيضاً نحن بحاجة لمعرفة لماذا أنشأ علم الاجتماع وتطور بالطريقة التى أنشأ بها، ومن شارك فعلياً فى عملية النشوء والإرتقاء تلك، ومن الذى تم إقصائه أو تهميشه، وما المجالات والفروع العلمية الأخرى التى أسهمت فى تطور علم الاجتماع وكيف قامت بذلك، وما الصراعات والتوترات التى حدثت فى هذا الخضم، وأين نجد النظرية والتطبيق لعلم الاجتماع فى الفترات المختلفة، وما القضايا والموضوعات التى ألهمت المفكرين لإثراء هذه الطريقة المبتكرة فى النظر للعالم، وما هى القوى التى جعلت وجود علم الاجتماع ضرورياً؟

فحقيقة الأمر ، أن هناك أكثر من تاريخ لعلم الاجتماع. فقد يقوم أحد الباحثين – على سبيل المثال – بالبحث فى تطور علم الاجتماع من حيث علاقته بالعلوم الأخرى. مثال على ذلك، ما ناقشه "بيتر بورك" Peter Burke فى كتابه "التاريخ والنظرية الاجتماعية" History and Social Theory عن الارتباط بين التاريخ وعلم الاجتماع، بهدف إظهار أطر التكامل العلمية ومناطق الابتعاد والتقارب، حتى أنه يتساءل البعض عما إذا كان علم الاجتماع ضروريا للتاريخ، وإذا كان التاريخ هاما لعلم الاجتماع. فقد شاب كل الفرعين تغيرا فى الاتجاهات والمحاولات والمساعي للتمايز والاستقلالية. واليوم صار علم

الاجتماع أكثر مهنية وله تعريف مؤسساتي واضح وأكثر تركيزا على مشاهد المجتمع المعاصر. وبالتالي فإنه صار أكثر توجها للانسحاب من الاهتمام التاريخي. وربما يرجع هذا التوجه كذلك إلى طبيعة النموذج الثقافى الأمريكى ذاته – باعتبار الأثر الأمريكى الواضح على علم الاجتماع – ذلك لأن الخبرة الأمريكية تنظر للتاريخ على أنه أقل أهمية وقيمة، وذلك فى ظل عدم وجود تاريخ أمريكى يمكن للخبرة الأمريكية الوقوف عليه، فتاريخ الولايات المتحدة كله لا يربوا على المائتي عام، بخلاف ما هو عليه الأمر فى أوربا. فضلا عن ذلك، فإن مطلب إضفاء الطابع العلمى على علم الاجتماع جاء نتيجة التحول فى الاهتمامات بعيدا عن الماضى. ويوضح "ألبيون سمول" Albion Small فى كتابه "أصول علم الاجتماع" (١٩٢٤) The Origins of Sociology، أن علم الاجتماع جاء للوجود في سياق نضوج العلوم الاجتماعية ككل. فعلم الاجتماع بمثابة تطور طبيعي للفكر البشرى من التطور الأقل للتطور الأعلى فى التعامل مع الواقع الإنساني. كما أكد سمول أن تأسيس علم الاجتماع تم أيضا على يد من هم خارج الدوائر الأكاديمية أو المهمشين عنها، ممن كان لديهم الحافز لكشف النقاب عن العالم الخارجي والمهتمين بفهم وإجابة تساؤلاته وحل المشكلات الاجتماعية (٨).

وتاريخ علم الاجتماع مكتوب من قبل علماء الاجتماع وموجه لهم، وهو نفس المنطق الذي تسير عليه كل العلوم الاجتماعية الأخرى. فدراسة تاريخ نشوء العلم وتطوره ضرورية لأنها تساعد فى تشكيل تساؤلات جدية والكشف عن المشكلات المنسية. وقد بدأ الاهتمام بتاريخ علم الاجتماع منذ الإرهاصات

الأولى لهذا العلم. فعلماء الاجتماع الأوائل فى أوربا وأمريكا الشمالية (مثل كونت ودوركايم وفيبر وسمول وغيرهم) قد أدركوا الحاجة لتحديد أصول علم الاجتماع وفهم طريقة نشوئه وعلاقته بالفلسفة والتاريخ والاقتصاد وحتى الأدب.

وقد انتهج هؤلاء العلماء طريقة البحث الاجتماعي فى سياق التطورات التاريخية مع الأخذ فى الاعتبار سياق الخبرة الإنسانية والتشكيلات الاجتماعية التى كانوا يحاولون تقديم شروحات لها. فضلا عن ذلك، فإن مؤسسي علم الاجتماع كانوا يتمتعون بوعى ذاتى أصيل بعمليات البحث الاجتماعي. فقد أكدوا على أنه ليس بمقدور الفرد فهم الظواهر الاجتماعية خارج نطاق سياقها وتطورها التاريخى، ولا يمكن له استشعار الخبرة الاجتماعية ككل دون أن يحظى بدرجة من الوعى بنشوء تلك الخبرة عبر الوقت، بما فى ذلك الأشكال الغالبة والقضايا الأساسية والمشكلات والاستنتاجات البحثية الجوهرية.

وأخيرا، فإن علماء الاجتماع الأوائل كانوا مهتمين بالغرض من علم الاجتماع؛ فالمقصد من وراء هذا السعى كان استخدام هذه الاستنتاجات والمعرفة الجديدة النامية عن البحوث السوسيولوجية المبتكر، فى خدمة المجتمع، وذلك من خلال تقديم قاعدة أساسية للسياسة الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي. لذلك، كان هناك دائما اختبار للدور المنوط بعلم الاجتماع أن يلعبه فى المجتمع، وكيف له أن يتناول القضايا المجتمعية اليومية والمواقف الحياتية الواقعية ومشكلات الناس العاديين، ولا نغفل فى الوقت ذاته البحث فى جودة الحياة فى المجتمع الحديث.

وبدراسة تاريخ علم الاجتماع، يتضح أن كلا من الباحثين الأوائل والباحثين المعاصرين فى علم الاجتماع لديهم إدراك مشترك بضرورة فهم تاريخ علم الاجتماع كحقل معرفى وكمنظور للعالم وكمحدد للوعى الذاتى المبين لكيفية وسبب الاهتمام بعلم الاجتماع بوصفه موجه يحدد للفرد كيف يعيش فى العالم(٩).

وقد بدأ علم الاجتماع يأخذ طابعه المؤسسي فى الفترة ١٨٩٠-١٩٢٠، عندما دخل الجامعات التى منحته التفاضل المعرفي والاستقلالية المؤسساتية. وبعد هذه المرحلة، زاد الاهتمام بتحديد هذا المجال المعرفي ووضع حدود مميزة له. ومنذ ذلك الحين، لم يعد تعريف علم الاجتماع يمثل إشكالية، بل صار تدريس أسسه ومبادئه هو المشكلة الرئيسة. فمن اليسير ملاحظة أنه منذ ثلاثينات القرن العشرين، بدأت المراجعات والكتب المتخصصة يقل اهتمامها شيئاً فشيء بالأسئلة المتعلقة بتعريف علم الاجتماع. بل على العكس، اتجه الاهتمام حيال نهج تأريخي لتحديد هوية المجال.

وفى غضون هذا الاهتمام بتاريخ علم الاجتماع، تم بناء قاعدة معرفية راسخة له. وبالرغم من ذلك، فإن تشكيل الهوية التاريخية لعلم الاجتماع تؤدى أحياناً إلى شئ من التشتت. ففى عقد الثلاثينات، قام علماء الاجتماع بإعادة تعريف هذا الحقل المعرفى بشكل مختلف تماماً عما كان عليه فى بدايته. ففى حين أن علم الاجتماع فى إرهاصاته الأولى كان يرفض أى محاولة لإضفاء الشخص على المجال personalization من خلال الإصرار على التحديد المعرفى له، فإن من أعادوا كتابة تاريخه تناسوا توجهه السابق نحو الاستقلالية،

من خلال تركيزهم المفرط على الدور التحديدى المفترض لرواده المؤسسين، فشخصنوا العلم من حيث لم يكونوا يدركوا ذلك. أما الرواد المؤسسين فكانوا بمثابة وحدات تواصلية تقوى الذاكرة التكرارية الاستطرادية للمجال. فقد جاء تأصيل هذا العلم من خلال عملية إثراء للمعنى semantic تسعى لتكوين بنيتها الخاصة خارج نطاق الأشياء والتقانات والطرائق المتنوعة، كما جاء من خلال عملية الإدراج والإقصاء للحقول الرمزية البديلة(١٠).

ولاشك أن الفلسفة الاجتماعية التى سادت خلال القرن الثامن عشر – بمعانيها الصريحة والضمنية – قد شكلت مصدر إلهام للعلوم الطبيعية والاجتماعية، وأسهمت – بالتالى – فى حدوث الثورة الفرنسية، التى شكلت – بدورها – نقطة انطلاق للفلسفة الاجتماعية – وعلى الأخص جوانبه النظرية وقضاياه – نتاجاً لعملية الإحياء الفكرى. وربما كان ذلك هو السبب فى ظهور تناقض صريح، بدأ أوضح ما يكون فى محاولة التوفيق بين حتمية التغير من ناحية، والنظام الاجتماعى المعارض له من ناحية أخرى (١١).

وقد اتسم تطور الفكر الأكاديمي عامة وللعلوم الاجتماعية على وجه الخصوص أثناء القرن العشرين بعملية سريعة ومتواصلة من تراكم كميات هائلة من المواد العلمية. حيث صار هناك تراكم هائل من النتاج الأكاديمي. وبالتالى، أصبحت العلوم الاجتماعية صارت فى موقع مختلف تماماً فى بداية القرن الحادى والعشرين عما كانت عليه فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لكن، ما هي خلفية هذا التغير؟ لقد كان لوضع حدود واضحة للعلوم الاجتماعية أهمية قصوى فى هذا الصدد. حيث تم فصل العلوم الاجتماعية فى موضوعات مستقلة؛ مثل التاريخ وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والتربية والدراسات الإعلامية والجغرافية وبعض الموضوعات الاخري. وصار لتلك العلوم مكانتها المميزة وموضعها المستقل فى الجامعات وفى المجتمع الأكاديمي[١٢].

ومن الجدير بالذكر أن تطور الحقل العلمي يسير جنبا إلي جنب مع باقي التغيرات المجتمعية الأخرى. فالإطار العام للمهن المختلفة قد تغير، وتطورت معه المبني الاجتماعية والاقتصادية وفرضت العديد من السمات الجديدة. فضلا عن ذلك، فإن ما يستجد على المجتمع يجلب معه تساؤلات ومناقشات جديدة تعكس الملامح الجديدة للمناخ الثقافي والجدل الفكري وتشكل عملية التغير التاريخية[١٣].

وفى عقد الخمسينات، صار علم الاجتماع فرعاً مستقلاً، يهيمن عليه ما يسميه "جورج ستينمتز" George Steinmetz الوضعية المنهجية methodological positivism التى عرفها من المنظور المعرفي epistemology كبحث عن القوانين، ومن المنظور الوجودي antilogy كمنهج إمبريقى (تجريبي) ومن المنظور المنهجي methodology كمذهب علمي أو مدرسة طبيعية. وقد كانت الرؤية العامة التى تميز الحقل السوسيولوجي قبل وبعد الحرب العالمية الثانية تجلى أهمية التحول المعرفي لهذا الفرع من العلم. وكان أثر عقد الستينات على علم الاجتماع كبيراً، حيث كان

هناك توجهاً نحو علم اجتماع عام ذو نزعة تطبيقية أقل وتوجه يساري غالب[١٤].

والسؤال الذي يطرح نفسه، هو ما إذا كان التقدم العلمي الذي يمكن ملاحظته فى العقود الأخيرة فى الغرب له نفس النتائج على المستوى العالمي، أم أن هناك اختلافات بين الدول والأفراد المختلفين. والإجابة عليه واضحة بطبيعة الحال. فما من شك أن الأثر الواقع على كل بلد يعتمد على العديد من العوامل، خاصة نظم التعليم الوطنية والسياق التاريخي السياسي الذي تحدث فيه[١٥].

وحيث أن أى علم من العلوم غايته النهائية هو الإنسان، سواء نظرنا إليه من منظور بيولوجى أو اقتصادى أو سياسى أو إدارى أو أخلاقى، إلا أن هؤلاء جميعاً بحاجة إلى معرفة الإنسان الاجتماعى الذى تتمثل فيه حركة المجتمع الإنسانى وتغيره.

فالطب الاجتماعى هو أسمى ما يهدف إليه المتخصصون فى الطب، والهندسة البشرية هى عصب كافة فروع الهندسة، المعمارية أو المدنية أو التكنولوجية. وعادات الناس وأذواقهم وأنماط حياتهم فى الاستهلاك والإنتاج والمبادلة ليست بمنأى عن أى تخطيط اقتصادى يضع فى اعتباره القوى والموارد الأخلاقية والروحية القائمة والممكنة جنباً إلى جنب مع القوى والعناصر المادية والفنية والبشرية القادرة على إشباع الحاجات وتلبية التطلعات الإنسانية التى لا تحكمها حدود.

ويبدو أن جميع الظواهر التى نشاهدها تتعاون متشاركة بعضها مع بعض، فالظاهرة الدينية والظاهرة الجغرافية والظاهرة التاريخية والظاهرة الأخلاقية والظاهرة السياسية وجميع الظواهر السلوكية التى تبدو فردية فى شكلها هى فى مجموعها ظواهر "اجتماعية" متكاملة ومتعاونة تسير جنباً إلى جنب سواء بسواء[١٦].

ومع أن الفكر الاجتماعى يضرب بجذوره منذ الحضارة الفرعونية والصينية مروراً بالفكر الاجتماعى عند الإغريق، فالفكر الاجتماعى الرومانى والفكر الاجتماعى المسيحى فالفكر الإسلامى، إلا أننا هنا سوف نبدأ من الفكر الإسلامى، في محاولة توضيح ما له من صلة مباشرة بموضوع علم الاجتماع أو علم العمران البشرى عند ابن خلدون والذى يعد المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع.

ثانياً – الفكر الاجتماعي الإسلامي

كان نزول القرآن على نبينا محمد ﷺ أهم حادث فى تاريخ البشرية. فلأول مرة ينزل على الأرض كتاب سماوي ذو حروف وكلمات إلهية لم يكتب حرفاً من حروفه بشر ولم يخط سطراً من سطوره إنسان. وأعلن الكتاب الإلهى إعلاناً لا محيص عنه أنه آخر وحى نزل من السماء وأنه قد أقفل الدائرة التى تساقطت منها الصحف والألواح السماوية الأخرى، وانطلق الكتاب ينظم حياة البشر ويضع شرائع مقننة للسلوك والعمل ولقد تضمن الكتاب السماوى نوعان من الحقائق: حقائق توفيقية لا مجال للعمل أن يرتاد فيها فهى تتصل بالعقيدة،

وحقائق توفيقية للعقل أن ينتج فيها العلم والحضارة ولقد فتحت هذه الحقائق الأخيرة المجال واسعاً أمام مفكرى الإسلام لكى يسهموا فى بناء المعرفة الإنسانية إسهاماً فريداً، ليس مادة فحسب وإنما منهجاً أيضاً ذلك أن مفكرى الإسلام قد نجحوا فى وضع أصول المنهج العلمى الاستقرائى الذى انتقل كاملاً بعد ذلك إلى الحضارة الغربية ويتفق هذا المنهج نصاً وروحاً مع القرآن والسنة، وأود أن أشير فى هذا الصد إلى أن الفكر الاجتماعى الإسلامى بحاجة إلى دراسة مستفيضة تكشف أبعاده المختلفة ومنزلته بين الاتجاهات الفكرية الأخرى[١٧].

وسوف نركز هنا على إسهام ابن خلدون بصورة أساسية باعتباره مؤسس علم الاجتماع مع ذكر نبذة مختصرة عن أبو نصر الفارابى.

١- أبو نصر الفارابي (٨٧٣-٩٥٠)

تعتبر "المدينة الفاضلة" أهم ما كتبه الفارابي من الناحية الاجتماعية، فقد ذهب فيها إلى أن بنى الإنسان فى حاجة إلى الاجتماع للتعاون فيما بينهم، إذ يقول أن كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه إلى أشياء كثيرة لا يمكن أن يقوم بها وحده بل يحتاج إلى قوة يقوم له كل واحد منهم بشئ مما يحتاج إليه.

ثم يقسم الفارابي المجتمعات الإنسانية إلى فئتين كبيرتين: مجتمعات كاملة، ومجتمعات غير كاملة. فأول وأكمل أشكال النوع الأول هو "اجتماع الجماعة كلها فى المعمورة أو المجتمع العالمي، ثم المجتمع الأوسط الذى يشمل

الأمة ثم المجتمع الأصغر ويشمل المدينة. ونلمح فى هذا التصنيف بالطبع تأثر الفارابى بالفكرة الإسلامية القائلة بالعالمية أما المجتمعات غير الكاملة فهى على ثلاث أنواع كذلك هى: [المجتمع القروى الذى يشمل القرية، والمجتمع الذى يشمل سكان حى، وأخيرا المجتمع المنزلى الذى يشمل أفراد أسرة واحدة]، ويرى الفارابى أن من الصعب تحقيق المجتمع العالمى وكذلك وجه عناية خاصة للمدينة لأن إصلاحها سيؤدى إلى صلاح الأمة، وأول شئ يؤدى إلى كمال المدينة هو التعاون التام بين أفرادها ثم وجود رئيس المدينة يدبر سئونها على الوجه الأكمل.

وتنقسم الأعمال فى المدينة حسب الطبقات المختلفة بحيث يقوم بأنبل الأعمال وأهمها أقرب الطبقات للرئيس، وهذا الرئيس يجب أن تتحقق له بالفطرة صفات الرياسة كما يتعين أن يكتسب نور المعرفة وقد حدد الفارابى اثنتى عشرة خصلة يجب أن تتوفر فى الرئيس، وأهم ما تضمنه تحليل الفارابى هو إشارته لضرورة بحث أصول النظم الاجتماعية ثم تقريره بشكل ضمنى أن الظواهر الاجتماعية لا توجد هكذا كيفما اتفق وإنما تخضع لقوانين وقواعد (١٨).

٣- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦)

المؤسس الأول لعلم الاجتماع، ولد فى تونس من أسرة يرجع أصلها إلى مدينة أشبيلية بالأندلس ودرس كافة العلوم السائدة فى عصره كما شغل كثيراً من المناصب الحكومية وقام بكثير من الرحلات فى الشرق والغرب وعمل فى الحقل السياسي لدى كثير من أمراء الأندلس وبلاد المغرب ثم أقام بمصر من سنة ١٣٨٢ حتى قبل وفاته سنة ١٤٠٦، وتولى فيها كثير من الوظائف فى التدريس

والقضاء وأهم مؤلفات ابن خلدون مقدمته فى التاريخ واسمها بالكامل كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ؛ ولقد عرض فى هذه المقدمة أهم آرائه الاجتماعية ولنتناول هذه الآراء.

يقول ابن خلدون بصدد علم الاجتماع، أننا ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه أو ما يكون عارضاً لا يعتد به وما يمكن أن يعرض له، ويقول أيضاً وكأن هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمرانى البشرى والاجتماع الإنسانى ؛ وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد الأخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أم عقلياً، ثم يقسم كتابه إلى ستة فصول تستوعب تقريباً كل فروع الاجتماع المعروفة عند الاجتماعيين المحدثين وهى على التوالى، فى العمران البشرى وأصنافه، وفى العمران البدوى، والأمم الوحشية وفى الدول والخلافة والملك وفى العمران الحضرى والبلدان والأمصار، وفى الصنائع والمعاش والكسب وفى العلوم واكتسابها وتعلمها وهى تقابل عند المحدثين علم الاجتماع العام والأنثروبولوجيا والاجتماع السياسى والاجتماع الحضرى، والاجتماع الصناعى، والاجتماع التربوى.

ويُعرف ابن خلدون التاريخ تعريفاً اجتماعياً فيقول عنه: "يهدف التاريخ إلى إفهامنا الحالة الاجتماعية للإنسان، أعنى الحضارة ويهدف كذلك إلى أن يعلمنا الظواهر التى ترتبط بهذه الحضارة وإلى معرفة الحياة البدائية وتهذيب الأخلاق وروح الأسرة والقبيلة" [١٩].

ونجد أن موضوع "العلم الجديد لابن خلدون هو العمران"؛ أى الحياة الاجتماعية للبشر فى جميع ظواهرها، وفى الأدب تترجم كلمة العمران بكلمة "المدنية"، أو "الحضارة"، والمعنى التاريخى الاجتماعى المعاصر لاصطلاح "المدنية" الذى يعنى المقومات الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع فى طور محدد لا يطابق ذلك المحتوى الذى وضعه ابن خلدون للعمران، ولا يوافق مفهوم اصطلاح "الحضارة"، لأن العمران ليس نتيجة، ولكنه نفس العملية الخاصة بالنشاط الحيوى للمجتمع.

والترجمة الحرفية للاصطلاح هى "الحياة الاجتماعية "، وهى فى رأينا أكثر مطابقة لمفهوم العمران عند ابن خلدون، ولكن مفهوم "الحياة الاجتماعية" نفسه متعدد المعانى إلى درجة كبيرة، وهو يأخذ معنى واحد فقط فى متن النص الذى يحدد المضمون الأساسى للاصطلاح.

ويصل ابن خلدون إلى تحديد كلمة العمران فى "المقدمة" بالشرح المباشر لمعنى الاصطلاح، فالعمران "هو التساكن والتنازل فى مصر أو حلة، للأنس بالعشيرة، واقتضاء الحاجات، لما فى طباعهم من التعاون على المعاش".

وبهذه الصورة، فالحياة الاجتماعية عند ابن خلدون تعتبر – أولا وقبل كل شئ – عملاً جماعياً إنتاجياً للبشر، مشروطاً بالاحتياجات المادية، وجميع الظواهر الباقية لحياة المجتمع " فى الملك، والكسب والعلوم، والصنائع " تدخل فى مفهوم العمران، ولكنها لا تحدد فكرته[٢٠] التى اجتمعت وتشابكت لكى تشكل اتجاهه الفكرى وتبرر اهتمامه بعلم الاجتماع الإنسانى، فمن الواضح أولاً : أنه لم يكن مفكراً متأملاً منعزلاً عن الواقع الاجتماعى السياسى، وإنما كان فكره

يمثل انعكاساً لتجارب سياسية اجتماعية واسعة النطاق، ومن الواضح ثانياً : أنه كان رجل علم وعمل فى الوقت ذاته، بل لا نبالغ فى القول بأنه كان يوظف علمه وفقهه فى خدمة العمل السياسى، ومن الواضح ثالثاً : أنه يعتد بخبرة الواقع، بمعايشة الحياة الاجتماعية للقبائل والعشائر والجماعات الاجتماعية والسياسية المختلفة، ويعتبر هذه " الخبرة الواقعية " مصدراً رئيسياً من مصادر المعرفة. ومن الواضح رابعاً : وأخيرا أن مفاهيم العمران البشرى والسياسة التى ناقشها ابن خلدون كانت مفاهيم مشتقة من الإطار الأشمل للفكر الإسلامى، الذى اهتم به وانتمى إليه.

الاجتماع الإنساني: **موضوعه وأهميته ومنهجه**

وقد أكد ابن خلدون ضرورة وجود علم مستقل لتناول أمور الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى، ووضع لهذا العلم موضوعاً، ومجالاً ومنهجاً، وأقام بناؤه على أساس تأمل ونظر، وخبرة فعلية وواقعية واسعة النطاق على مساحة كبيرة شملت معظم أقطار العالم العربى بدءاً من الأندلس إلى مصر والشام والحجاز. حيث يقول: " اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم، وما يعرض لطبقة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنيس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم الصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحول...".

هكذا ؛ يبدأ ابن خلدون بتحديد جوهر التاريخ بأنه هو التاريخ الاجتماعى الذى يختص بأنماط المجتمعات الإنسانية من وحشية (بدائية، أو مدنية، أو قبلية) تلعب فيها العصبية دوراً بارزاً، كما أن " القوة " بكل ما تنطوى عليه من معنى تمثل بعداً أساسياً من أبعاد التاريخ الاجتماعى الذى هو عمران العالم أو حياته الاجتماعية. كذلك يهتم العمران البشرى بالحياة الاقتصادية والأحوال المعيشية للجماعات الإنسانية.

وإذا كان التاريخ فى جوهره هو تاريخ المجتمعات البشرية، فإن الكتابة عن هذه المجتمعات لا تكون " بالتأمل " وإنما بالمعايشة، و "المطابقة" بين الفكر والواقع، ويكتب ابن خلدون عن ذلك يقول : « وأما الأخبار عن الواقعات فلابد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان وقوعه، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه، إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة، وإذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الإخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع الإنسانى الذى هو العمران، ونميز ما يحلقه من الأحوال لذاته، وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك " قانوناً " فى تمييز الحق من الباطل فى الإخبار، والصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه – وحينئذ – فإذا سمعنا عن شئ من الأحوال الواقعة فى العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه ».

والواقع أن النص السابق ينطوى على تحديدات واضحة لما ينبغى أن يكون عليه البحث فى الوقائع الاجتماعية أو العمرانية، فالمطابقة هنا تعنى التحقق الأمبريقى، والواقع وحده هو المعيار الذى نحتكم إليه فى قبول المعلومات والمعارف أو رفضها، والتاريخ لا يكون صحيحاً مقبولاً إلا إذا ربط نفسه أكثر فأكثر بالاجتماع الإنسانى أو العمرانى البشرى وما يلحق به من أحوال.

وحينما يقرر ابن خلدون الحقيقة الاجتماعية للتاريخ نجده يؤكد أن ذلك يستدعى وجود علم مستقل، قائم بذاته لدراسة الواقعات الاجتماعية، وفى ذلك يقول فى نص واضح تماماً : «... وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا، وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى، وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً».

إذن، فعلم العمران البشرى علم مستقل يتناول بالدراسة كل ما يحلق بالحياة الاجتماعية من عوارض أو تغيرات، ويدرسها واحدة تلو الأخرى، ووجود موضوع محدد للعلم هو المعيار الذى نحتكم إليه فى الاعتراف بوجود هذا العلم [٢١].

وطبيعة العلاقات المتبادلة بين العلم الجديد والفلسفة والتاريخ والسياسة، تضطر ابن خلدون أن يحدد مسائله فى ثلاثة اتجاهات[٢٢] :

١) اتجاه فلسفى، وهو " نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق... "
٢) اتجاه تاريخى – أو تاريخ نظرى – وهو بحث وتوضيح " أسباب التصرف والحول فى القرون الخالية والملل "
٣) اتجاه اجتماعى، وهو " شرح أحوال العمران والتمدن ".

وهذا العلم فى رأى ابن خلدون "مستحدث" بمعنى أنه لم يسبق أن تحدث عنه بهذه الكيفية من قبل، هو علم جديد، عظيم الفائدة، ونستطيع أن نلمس هذه الفائدة أو القيمة العملية لهذا العلم " بالبحث " وهو فى ذلك يختلف عن بعض العلوم الأخرى والفنون التى قد تبدو متداخلة معه مختلفة بميدانه. فهو مختلف من علم الخطابة ومختلف أيضاً عن علم السياسة المدينة، فحقائق العمران البشرى مرتبطة بالملكات التى اختص الله بها الانسان دون سائر الحيوانات ولعل أهمها السعى فى المعاش، والحاجة إلى الحاكم والسلطان القاهر. والعمران الذى هو " التساكن والتنازل فى مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما فى طباعهم من التعاون على المعاش ". تلك هى مقدمات الحياة الاجتماعية المنظمة التى هى نتيجة مباشرة للفكر والوعى الذى يميز الإنسان.

وبعد ذلك يقسم ابن خلدون مجالات الدراسة فى العمران البشرى أو الاجتماعى الإنسانى إلى عدة أقسام يفصل فيها الكلام فى أقسام مقدمته على النحو التالى :

١) " العمران البشرى على الجملة " أو الاجتماع العام General Sociology ، ويوضح فيه حدود العالم وأهميته.

٢) "العمران البدوى" ويتناول القبائل والأمم الوحشية وهو يعتبر هذا النوع من العمران سابق على كل أنواع العمران الأخرى.
٣) "الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية" وهو بحث فى الاجتماع السياسى، وتناول موسع لنظرية القوة والدولة.
٤) "العمران الحضرى" وهو البحث فى المدن والأمصار.
٥) "فى الصنائع والكسب والمعاش وجوهه" وهو بحث فى الاجتماع الصناعى والاقتصادى.
٦) "فى العلوم واكتسابها وتعلمها" وهو بحث فى الاجتماع التربوى.

ويقدم ابن خلدون معالجته لمختلف مجالات العمران البشرى بإثبات حقيقة أولية مؤداها: «أن الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى، وإلا لم يكمل وجودهم، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم، واستخلافه إياهم. وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعاً لهذا العلم. وفى هذا الكلام نوع إثبات للموضوع. فى فنه الذى هو موضوع له» وضرورة الاجتماع ترجع إلى ما عبر عنه الحكماء بقولهم أن " الإنسان مدنى بطبعه "، فلابد من التعاون بين بنى البشر لإنتاج مقومات حياتهم، والنشاط الاقتصادى هو الحقيقة الأولى لإنتاج الحياة الاجتماعية، فإنتاج قوت يوم واحد من الحنطة مثلاً يحتاج إلى كثير من النشاطات التعاونية التى تتطلب "اجتماع القدرات الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم أضعاف".

وكما يحتاج إنتاج وسائل العيش المادى إلى التعاون، فإن البقاء والاستمرار والدفاع عن الجنس البشرى ضد مصادر العدوان يحتاج أيضاً إلى التعاون، ويتحقق عن طريق هذا التعاون توافق الإنسان مع البيئة التى تحيط به والتى تتضمن الكثير من مظاهر عناصر مقاومة وجود الإنسان[٢٣].

وما يعرض فى الاجتماع الإنسانى من :

أ– أسباب أولية الدول والعمران.

ب– شرح وتحليل لأحوال المجتمع البشرى.

ج– والاتجاه الأخير – على ما يبدو – هو الاتجاه الأساسى فى المقدمة.

وعلى أساس الدراسة العميقة للمعلومات التاريخية الكثيرة، أنشأ ابن خلدون مصطلحاته الفنية الخاصة، وبهذا ابتدع كلمات جديدة، أو استخدم الكلمات الموجودة فى معان أخرى، وهذه المعانى الجديدة للكلمات فسرها ابن خلدون عن طريق الترادف، فابن خلدون يكتب : «الألفاظ تستعمل عادة فى معانيها المعروفة بوجه عام، فإذا حدث أن استعملت كلمة فى معنى غير معناها المألوف فإننا نفسرها بطريق الترادف الذى يثبت معناها» (٢٤).

ولا تستقر حياة الإنسان، ولا يحدث الاجتماع والعمران بالمعنى الذى يقرره ابن خلدون بدون وجود القيادة السياسة، التى تمارس القوة والسيطرة، وفى ذلك يقول : « فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم...، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك ».

وهكذا، نجد ابن خلدون يحلل العمليتين الاجتماعيتين الرئيسيتين فى الحياة الاجتماعية وهما : التعاون أو التضامن، والتصارع أو العدوان، ثم يؤسس على ذلك وجهة نظر السياسى التى مؤداها، أنه بدون الوازع أو الحاكم يستحيل قيام

النظام الاجتماعى، وهو لذلك يقول : الدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والملك متعذر، لما فى طباع البشر من العدوان الداعى إلى التنازع".

وبعد أن حدد ابن خلدون موضوع الاجتماع الإنسانى وبين أهميته والمتغيرات الرئيسية فى الحياة الاجتماعية التى تضم ثلاثة أبعاد للحقيقة الاجتماعية وهى : البيئة، والسياسة، والاقتصاد، راح بعد ذلك ليحدد المناهج الملائمة للبحث فى هذا الميدان. وناقش هذه المناهج فى صدر مقدمته عند الحديث عن البحث التاريخى.

وقد تتبع الدكتور حسن الساعاتى فى مؤلفه عن علم الاجتماع الخلدونى، قواعد المنهج التى بسطها ابن خلدون كطرق ملائمة للبحث فى العمران البشرى وحدد هذه القواعد بأنها تشمل : الشك والتمحيص، والتشخيص المادى، وتحكيم أصول العادة وطبيعة العمران، والقياس بالشاهد والغائب، والسير والتقسيم، والتعميم الحذر.

ونحن نعتقد أن الخطوات المنهجية السابقة قد صاغها ابن خلدون فى إطار الدراسة التاريخية السببية للواقعات العمرانية. فمنهج البحث عنده فى الأصل تاريخى، ولكنه بحث تاريخى يستند إلى أسس واقعية، ويحتكم إلى معايير محددة لاستقصاء الوقائع والتحقق من صحة المعلومات.

ويحد ابن خلدون أسس البحث التاريخى بقوله: «أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى فى فهمه

العلماء والجهال، إذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرق بها الأندية إذا غضها الاحتفال، وتؤدى إلينا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بها ارتحال وحان فيهم الزوال، وفى باطنه نظر وتحقيق، وتعطيل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق».

ويشير النص السابق إلى خاصتين رئيستين من خصائص البحث التاريخى وهما: أن التاريخ فن، وأن التاريخ علم بكيفيات الوقائع دقيق. فأما أنه فن، فإن ذلك يلقى على المؤرخ تبعه التحقق من صحة الروايات والأقوال، فعليه أن يقوم بتمحيص الأخبار لتمييز الحق من الباطل والتأكد من مطابقتها، ثم هو فى جوهره علم دقيق ينطوى على النظر والتحقق والتعليل أى التعرف على الأسباب التى تؤدى إلى وقوع الظواهر. وحينما ينظر ابن خلدون إلى التاريخ على أنه علم عميق بالأسباب، فإنه فى الواقع يعبر عن وجهة نظر عالم الاجتماع التاريخى الحق، ذلك أن العالم الاجتماعى حين يدرس الوقائع التاريخية لا يقنع بمجرد سرد ووصف هذه الوقائع فى سباق الزمن، وإنما يوجه كل اهتمامه إلى محاولة الربط بينها. واكتشاف الأسباب والنتائج والخروج فى نهاية الأمر بتعميمات يمكن أن تصدق على الماضى، ولعل ذلك هو المفهوم العلمى للتاريخ الاجتماعى الذى وضع أصوله ابن خلدون [٢٥].

ومنهج البحث التاريخى العلمى فى رأى ابن خلدون لا ينزع إلى النقل والسرد والخلط، وإنما يقوم على ملاحظة أسباب الوقائع والأحوال، ولذلك فهو يعتمد على طرق فنية فى التحقيق والتنقيح، كما يشير ابن خلدون إلى إجراءين آخرين هما: النقد الصحيح، والاحتكام إلى طبائع العمران وأحواله.

والواقع أن هذا الإجراء الأخير يوضح وجهة نظر ابن خلدون فيما يجب أن يتناوله البحث التاريخى، إذ يتعين أن يتسم هذا البحث بالشمول لكافة نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية، وهو فى ذلك يقول : « ثم لم يأتى من هؤلاء إلا مقلد، وبليد الطبع والعقل أو متبلد، ينسج على ذلك المنوال، ويحتوى منه بالمثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال، فيجلبون الأخبار عن الدول، وحكايات الوقائع فى العصور الأولى، صوراً قد تجردت عن موادها،... إنما هى حوادث لم تعلم أصولها...، ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً، محافظين على نقلها وهما أو صدقاً، لا يتعرض لبدايتها، ولا يذكرون السبب الذى رفع بعد رايتها، وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراقبتها، مفتشاً عن أسباب تراكمها أو تعاقبها، باحثاً عن المقنع فى تباينها أو تناسبها ».

إذن، فالبحث باستخدام المنهج التاريخى يفرض على الباحث متطلبات أساسية، فمن الضرورى الالتفات إلى وقائع التغير والتبديل التى تجعل الأجيال مختلفة بعضها عن بعض، ولا يمكن أن يقتصر البحث التاريخى على مجرد

السرد وإنما ينطوى على بعد سياسى حاسم ورئيسى، ذلك أن ابن خلدون يصف هذا البعد باعتباره عاملاً رئيسياً من عوامل التغير الاجتماعى والحضارى.

ويضرب ابن خلدون مثالاً واضحاً لما يجب أن يكون عليه البحث التاريخى بما فعله هو نفسه. فبعد أن اطلع على الكتابات السابقة وسبر غورها، أنشأ فى التاريخ كتاباً، اهتم فيه بإبراز كل الحقائق الاجتماعية والسياسية التى تتعلق بتعاقب الأجيال، وأولوية الدول والعمران، واهتم فيه اهتماماً بالغاً بشرح أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الإنسانى من العوارض الذاتية، وما يكتنفه من علل.

المحاكاة والقهر الاجتماعى

حظيت فكرة المحاكاة أو التقليد باهتمام كبير من مفكرى علم الاجتماع خلال القرن التاسع عشر، وقد أشرنا عند تناول أراء دور كايم إلى الحوار الذى دار بينه وبين جبريل تارد فيما يتعلق بأثر المحاكاة فى الحياة الاجتماعية. فبينما يحفز الناس إلى تقليد بعضهم البعض، نجد أن دور كايم يصر على أن هذه العمومية ترجع إلى طبيعة الظاهرة الاجتماعية والوظائف التى تؤديها فى المجتمع، والقهر الذى تمارسه على أعضائه. هذا وقد طرح هذا الحوار قضية العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس، التى نوقشت فى تاريخ الفكر الاجتماعى، وانعقد علم الاجتماع على الاعتراف بالتأثير المتبادل بين المتغيرات الاجتماعية والنفسية فى الوقت ذاته.

وتنطوى مقدمة ابن خلدون على الكثير من الأفكار الخاصة بتأثير التقليد أو المحاكاة فى الحياة الاجتماعية، وهو يطلق على هذه العملية مصطلحات كثيرة مثل المحاكاة، والتشبه، والإقتدار والتقليد، وهو يبدأ بالقول بأن التقليد ظاهرة قديمة قدم الإنسان ذاته، فيقول : « التقليد عريق فى الآدميين وسليل »، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن القياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة.

ويرجع التقليد إلى أسباب نفسية أو ذاتية، فالحافز أو الدافع إلى التقليد هو نزعة داخلية تدعو الأفراد إلى تقليد بعضهم البعض، وتظهر هذه النزعة واضحة بالذات فى ذلك النمط من التقليد الذى يطلق عليه ابن خلدون تقليد المغلوب للغالب، فالنفس تنتحل جميع مذاهب الغالب وتتسبه به. ذلك هو الإقتدار ومنشأ هذا الاعتقاد عن حقيقة مؤداها : أن النفس ترى الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه. ومن ثم فإن النظرة إلى الغالب تنطوى على التسليم بأنه قد انتحل من العادات والمذاهب ما مكنه من تحقيق هذا الموقف، ومن ثم يتعين محاكاة هذه العادات لما تتضمنه من كمال [٢٦].

ثالثاً – الجذور الفكرية لعلم الاجتماع

يرتبط تاريخ علم الاجتماع ارتباطاً قوياً بما يسمى عصر التنوير فى كل من فرنسا وإنجلترا. فالإنجازات التى حققها المجتمع البرجوازى قد بدت وكأنها معايير يمكن من خلالها الحكم على الأشياء، لقد أصبح الناس يعارضون أى شئ قد لا يتسق مع التطور الطبيعى للمجتمع. وفى معظم المجتمعات الأوربية إتخذ التنوير ملامح عامة مشتركة من بينها : الرغبة فى إيجاد نظام اجتماعى

متحرر من كل القيود الإقطاعية، نظام واضح ومحدد يمكن فهمه واستيعابه تماماً، والإيمان الراسخ بأن التقدم الذى طرأ على العلوم الطبيعية يمكن أن يتحقق أيضاً بالنسبة للاقتصاد والسياسة والأخلاق مع التسليم بأن حياة الإنسان سوف تظل تنعم بالحرية. يضاف إلى ذلك ما اكتشفته المجتمعات الأوربية – آنئذ – من أن الحضارات " الغربية " غير المسيحية قد تتحدى هى الأخرى التقاليد التاريخية التى طالما استندت إلى الدين والاستبداد، وأن التاريخ قد لا يتخذ المسار الذى تحدده القوى الغيبية ويعبر فقط عن تغير الملكيات، وإنما يتحدد من خلال الأفعال الإنسانية التى قد تشجعها " الطبيعة " أو تعوقها. كذلك فإن المجتمعات الأوربية قد بدأت تسلم بأن سعادة الفرد – التى كانت قبل ذلك هى أهم عناصر الحياة – قد ارتبطت بقانون يعبر عن تفكيره وتأملاته. وأخيراً نجد اعتقاداً مؤداه، أن أفضل سبيل لتنظيم المجتمع وتطوره هو استخدام الإنسان لقدراته الفكرية[٢٧].

فبذلك يستطيع فهم الظروف القائمة وتحليلها ونقدها، ثم يتصرف بعد ذلك طبقاً بما يمليه عليه العقل. وتنظر هذه الفلسفة السياسة الاجتماعية الشاملة إلى المجتمع بوصفه كلاً شاملاً. فهى تؤكد هذا الطابع الكلى برغم اختلاف مظاهره وتجلياته، ثم تبحث عن الارتباطات المختلفة التى تشكل المجتمع. ولقد بدأت العلوم الاجتماعية – كل بطريقته الخاصة – دراسة هذه المظاهر والتجليات بهدف فهم هذا الكل فى ضوء الضرورات التى تفرضها الطبيعة. وبرغم ذلك فلقد كانت العمليات الطبيعية من أهم القوى المحركة للحضارات. وهكذا بدأت المجتمعات الأوربية تتخلى تدريجياً عن التسليم بضرورة الظروف الطبيعية، مما

مهد لظهور فكرة "العقد الاجتماعى" التى وضعت حداً لكثير من الصراعات. بيد ان فكرة "العقد الاجتماعى" ما لبثت هى الأخرى أن تعرضت لبعض التعديلات. فوجود الدولة – وبالتالى الحكومة – قد أصبح مرتبطاً فقط بإجماع الأفراد على أنها وسيلة لحماية ممتلكات الأفراد وحرياتهم واستقلالهم. ويستند المجتمع – بحكم طبيعته – إلى تقسيم العمل والمساعدة المتبادلة. إذ لا يستطيع الأفراد الاستمرار فى البقاء دون وجود مشاعر الأخوة والتعاطف.

وخلال تلك الفترة كانت السياسة العلمية تعنى قبول المبادئ والقوانين التى تتوصل إليها العلوم الطبيعية. " فالنظام الطبيعى " Natural Order الذى تحدث عنه نيوتن Newton يمكن أن ينطبق على المجتمع تماماً كما ينطبق على السياسة. وهكذا بدأ بعض المفكرين يعتقدون أن الظواهر الاجتماعية – شأنها شأن الظواهر الأخرى – يمكن أن تخضع للملاحظة المنظمة، وبالتالى يسهل دراستها ومقارنتها وتصنيفها. وبعبارة أخرى فإن دراسة الظواهر الاجتماعية يمكن أن تفضى فى نهاية الأمر إلى مجموعة من القوانين. ولقد حاول علم الاجتماع فيما بعد تحقيق هذا المطلب، حتى أن بعض علمائه قد ذهبوا إلى حد القول بأن هذا العلم لا يمكن أن يستحق اسمه إلا إذا نجح فى الوصول إلى قوانين علمية دقيقة. وهناك بعض آخر من علماء الاجتماع ما يزالون يطالبون بضرورة ارتباط هذا العلم بالفلسفة الاجتماعية، وعلى أية حال فإن الشئ المؤكد هو أن علم الاجتماع قد عاصر نشأة العلوم الاجتماعية الأخرى (وإن لم تعانى من نفس الغموض والاتساع) خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر [٢٨].

أما أبرز المفكرين الذين كانت لهم بصمات واضحة على تطور علم الاجتماع فهم : الفرنسى شارل دى مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥)، الذى قربت أفكاره من أفكار ابن خلدون، وخاصة حول علاقة النظم الاجتماعية وتأثرها بالبيئة والمناخ، والإيطالى جيامباتيستا فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤) الذى قسم تاريخ كل شعب إلى ثلاثة عصور، ثم الفرنسيان كوندرسيه (١٧٤٣-١٧٩٤) وسان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥)، والأخير كانت له آثار واضحة فى تقدم علم الاجتماع أقلها أنه دعا إلى قيام " فيزيولوجيا اجتماعية". ويلاحظ أن مونتسكيو وكوندرسيه وسان سيمون قد ساهموا فى تشكيل الثورة الفرنسية (١٧٨٩) كل بطريقة معينة، تلك الثورة التى كانت نتاجاً لفكر التنوير وثمرة من ثماره. أما مونتسكيو – الذى لم يدرك تلك الثورة – فقد أثر فيها فكرياً، فى حين شارك كوندرسيه بها مشاركة فعلية وأصبح أحد ضحاياها، بينما كان سان سيمون أحد مؤيديها. هذه الثورة التى شكلت انتصار الطبقة البرجوازية على الإقطاع إنما كانت لها أهمية عظمى فى تبلور علم الاجتماع، وخاصة فى محاولة كشف آليات الاستقرار الاجتماعى التى أربكتها الثورة.

ولابد من الإشارة هنا إلى تشكل تيار مضاد لفكر الثورة الفرنسية، بل لفكر عصر التنوير على الجملة، أقصد به التيار القديم المحافظ، الذي ظهر فى نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وهذا التيار أثر فى علم الاجتماع وتطوره. إذ دعا النقل بدلاً منه، مؤكداً على أهمية الجماعة والأسرة والقيم التقليدية والاستقرار الاجتماعى، محارباً النزعة الفردية. أما سياسياً، فكان هذا التيار موالياً للملكية، مضاداً للجمهورية. وأبرز مفكرى هذا التيار هم :

إديموند بيرك (١٧٢٧-١٧٩٧)، وجوزيف دى ماستر (١٧٥٤-١٨٤٠) ولويس دى بونالد (١٧٥٤-١٨٤٠).

وقد اتخذ أوجست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) موقفاً وسطاً بين فكر عصر التنوير الثورى، والفكر المضاد له المتمثل بالحركة الرومانسية، وهو موقف سيتبناه من يخلفه فى تيار البنائية الوظيفية. إذ أقر النظرة العلمية التى نادى بها فلاسفة عصر التنوير، بل إنه هو ذاته قد أسس مذهباً يعرف بالوضعية " يحصر نفسه فى حدود التجربة وحدها، بحيث لا يجاوز عالم الأشياء العينية التى تدركها الحواس ". وتأسيساً على ذلك فقد رفض كونت الشق الثانى من آراء عصر التنوير – أقصد تلك الآراء الثورية النقدية – بدعوى أنها تأملات فلسفية عقيمة لا يسندها أى واقع فعلى قابل للقياس. وهو موقف وضعه فى مصاف المفكرين الرومانسيين. فقد رأى كونت أن حركة المجتمع تخضع بالضرورة لقوانين فيزيائية لا تتغير، بدلاً من أن يحكمها نوع من الإرادة ". واقترن تمسكه بالمنهج العلمى "برفضه لادعاء الإنسان أنه قادر على تغيير نظمه الاجتماعية وإعادة تنظيمها وفقاً لإرادته"[٢٩].

ويؤكد كونت أن العلم يجب أن يعنى أولاً وأخيراً بملاحظة الظواهر وتصنيفها، وألا ينظر إلى المبررات والأسباب نظرة الميتافيزيقا لها. إن العلم لا يسعى إلى الوصول إلى الحقيقة المطلقة كما تفعل الدراسات اللاهوتية. لذلك فإن المهمة الأساسية للعلم تتمثل فى الكشف عن العلاقات التى تربط بين الوقائع القائمة بالفعل، أى تحديد "القوانين" التى تحكمها. ومن خلال لذلك تمكنت العلوم الطبيعية من إحراز تقدم كبير، لذلك يتعين استخدام المنهج

العلمى فى دراسة الظواهر الاجتماعية. وبهذه الطريقة يمكن القضاء على "الفوضى الروحية والأخلاقية" التى سادت فترة ما بعد الثورة الفرنسية، ليكون ذلك إيذاناً بظهور نظام جديد يسهم فى تحقيق مزيد من التقدم العلمى.

ولقد عارض كونت فكرة استخدام الإحصاء فى علم الاجتماع، على الرغم من أنه قد درس الرياضيات فى بداية حياته. وحينما نشر الإحصائى البلجيكي "كيتي ليه" Quetelet مؤلفاً بعنوان "الطبيعة الاجتماعية"، اضطر كونت لاستخدام مصطلح "علم الاجتماع" حتى يمكن التمييز بين مضمون هذا العلم الجديد و"الإحصاءات الاجتماعية" التى كان كيتيليه يستعين بها فى دراساته. والملاحظ أن كونت قد ظل طيلة حياته ينظر إلى حساب الاحتمالات على أنه أوضح دليل على العجز العلمى، وذلك على الرغم من أن كوندرسيه قد أوصى باستخدام نظرية الاحتمالات فى دراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية [٣٠].

أما علم الاجتماع العام عند كونت « الذى كان يتخذ طابعاً موسوعياً ليضم عدداً كبيراً من العلوم الاجتماعية الأخرى» فإنه ينقسم إلى مبحثين أساسيين : الإستياتيكا الاجتماعية Social Static's والديناميكا الاجتماعية Social Dynamics. ولقد أولى كونت المبحث الأخير اهتماماً كبيراً. فالديناميكا الاجتماعية تمثل بالنسبة له " نظرية عامة فى التقدم الطبيعى للإنسانية، وأنها (أى الديناميكا) تخضع لسيطرة قانون المراحل الثلاث. والملاحظ أن هذا القانون لا يحدد فقط المراحل التى يمر بها المجتمع ككل، بل يعين أيضاً مسار كل علم من العلوم، بل وكل فرد من أفراد المجتمع. أما المراحل فهى تلك التى يمر بها العقل البشرى ابتداء من المرحلة اللاهوتية،

مروراً بالمرحلة الميتافيزيقية، وصولاً إلى المرحلة النهائية وهى العلم أو المعرفة الوضعية إن شئنا الدقة. ولقد اعتبر كونت أن المرحلة الأخيرة ما تزال تحقق تقدماً مستمراً [٣١].

المراجـــــــــــــــع

١- بوتومور، تمهيد فى علم الاجتماع، ترجمة: محمد الجوهرى وآخرون، ط٥، دار المعارف، ١٩٨١، ص ٣١.

٢- ق. أفانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ترجمة: عبد الرازق الصافى، ط٤، دار الفارابى، بيروت، ١٩٨٤، ص ٨.

3- Antonio Labriola, History, Philosophy of History, Sociology and Historical Materialism, Translated by Charles H. Kerr Chicago, Charles H. Kerr Co-operative 1908 (Italian Edition 1896), p. 5

٤- بوتومور، مرجع سابق، ص ٣٧.

5- John Lewis Gillin, The Development of Sociology in the United States, Proceedings of the Twenty-First Annual Meeting "American Sociological Society", Volume XXI "The Progress of Sociology", St. Louis, December 28-31, 1926, p. 1.

٦- هاينزموس، الفكر الاجتماعى: نظرة تاريخية عالمية، ترجمة: السيد الحسينى، جهينة سلطان العيسى، سلسلة علم الاجتماع المعاصر الكتاب السادس والثلاثون، ط٢، ١٩٨١، ص ٢٣.

7- Stephen Turner, Who's Afraid of the History of Sociology? Swiss Journal of Sociology, Vol. 24, 1998, p. 10.

8- Susan Hoecker-Drysdale, Is The History of Sociology Important? Time Lines, E-Newsletter, No. 1, Boston, December 2004, pp. 1-4.

9- Susan Hoecker-Drysdale, Issues and Debates in the History of Sociology, Time Lines, E-Newsletter, No. 3, Boston, July 2005, pp. 1-3.

10- Salvino A. Salvaggio, and Paolo Barbeesino, Eigen-Mechanism and the History of Sociology: A reflexive Writing, in Salvaggio and Barbesino (eds), "Autopoietic Systems Theory and the System of Science", Collected Papers on Niklas Luhmann,

Social Science Information, Vol. 35, No. 2, June 1996, pp. 5-6.
١١- هاينزموس، مرجع سابق، ص٢٦.
12- Dieter Bögenhold, Economics, Sociology, History: Notes on Their Loss of Unity, Their Need for Re-Integration and the Current Relevance of the Controversy between Carl Menger and Gustav Schmoller, Proceedings of the Annual Conference of the International Association for Critical Realism (IACR), Cambridge University, Cambridge, August 17-19, 2004, pp. 1-2.
13- Ibid, pp. 3-4.
14- Craig Calhoun (ed), Sociology in America: A History, University of Chicago Press, 2006, Reviewed by: Jérôme Melançon, Canadian Journal of Sociology Online November – December 2007, pp. 1-2.
15- Dieter Bögenhold, op cit, p. 5.
١٦- حسين الحاج حسن، علم الاجتماع الأدبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٨٣، ص ص ١٥-٢٦.
- راجع أيضا:

- غريب سيد أحمد، علم الاجتماع ودراسة المجتمع، ٢٠٠٠، ص ص ٤-٩.

-Christopher G.A Bryant, Positivism in Social Theory and Research , Martin's Press, New York, 1985 , pp. 33-56.

١٧- محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع : الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣، ص ٣١.
- راجع أيضا:

- محمد عاطف غيث وآخرون، مجالات علم الاجتماع المعاصر : أسس نظرية ودراسات واقعية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، ص ص ٥-٢٠.

-Dwyer, Daisy Hilse , Law and Islam in the Middle East, Dergin and Garvey Publishers, U.S.A., 1990, pp. 15-43.

١٨- المرجع السابق، ص٣٢.
١٩- المرجع السابق، ص٣٣.
٢٠- سفتيلانا باتسييفا، العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون، ترجمة : رضوان إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ص ١٥٦-١٥٧.
٢١- محمد على محمد، مرجع سابق، ص ص ٥٢-٥٤.
٢٢- سفتيلانا باتسييفا، مرجع سابق، ص ١٥٧.
٢٣- محمد على، مرجع سابق، ص ص ٥٤-٥٦.
٢٤- سفتيلانا باتسييفا، مرجع سابق، ص ١٥٧.
٢٥- محمد على محمد، مرجع سابق، ص ص ٥٦-٥٧.
٢٦- المرجع السابق، ص ص ٥٨-٥٩.
٢٧- هاينزموس، مرجع سابق، ص١٩.
- راجع أيضا:

- Peter Worsiey , Introducing Sociology, Penguin Books, U.S.A., 1972, pp.19-59.

٢٨- المرجع السابق، ص ٢٠-٢٢.
٢٩- إيان كريب، النظرية الاجتماعية من هابرماس إلى حابرمانس، ترجمة : محمد حسين غلوم، عدد ٢٤٤ سلسلة عالم المعرفة، الكويت، إبريل ١٩٩٩، ص ص ١١-١٢.
٣٠- هاينزموس، مرجع سابق، ص ٣١.
٣١- المرجع السابق، ص ٣٢.

الفصل الثاني

تعريف علم الاجتماع ونظرياته

أولاً : ماهية علم الاجتماع

- التعريف
- الطبيعة
- الوظائف

ثانياً : النظرية الاجتماعية

- التعريف
- الأهمية
- التصنيف
- الوظائف

أولاً: تعريف علم الاجتماع وتحديد طبيعته

١- تعريف علم الاجتماع:

يعد أوجست كونت أول باحث يستخدم مصطلح "علم الاجتماع" Sociology فى الإشارة إلى هذا العلم المتعلق بالارتباطات والتجمعات البشرية. وكلمة "سوسيولوجي" Sociology مشتقة من الأصل اللاتيني Socius (وتعنى التجمع أو الارتباط) والكلمة اليونانية Logus (أى نظرية العلم)، لتصبح نظرية أو علم مجتمع الارتباطات أو التجمعات الانسانية Theory or Science of Human Association Society. فقد كان كونت يرغب فى وضع علم مجتمعي يساعد فى ترسيخ ودعم القوانين الاجتماعية التى كان يرى أنها تضبط عملية التطور والتغير.

وقد تعامل كونت مع إشكالية تعريف علم الاجتماع على أنه مجال معرفي قائم بذاته، فى حين أن علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده لم يقضوا كثيرا عقد إشكالية التعريف، بل انصب جل اهتمامهم على التوسع فى معنى علم الاجتماع. فقد شرح "هوب هاوس" Hob House كيف يتناول علم الاجتماع بالدراسة تفاعل العقول البشرية، واعتقد "بارك وبيرجس" Park and Burgess أن علم الاجتماع هو علم السلوكيات الجمعية. فى حين كان دوركايم أكثر دقة وقال أن علم الاجتماع هو علم دراسة الظواهر الاجتماعية.

أما هربرت سبنسر فقد قام بدراسة نظامية Systematic study على المجتمع متبنيا مصطلح علم الاجتماع Sociology، وكان ينظر له على أنه

طريقة لدراسة الناس. فعلماء الاجتماع – من منظوره – يسعون لمعرفة لماذا يتصرف الناس بالطريقة التى يتصرفون بها، ولماذا يكونون جماعات، ولماذا يذهبون للحرب أو يمتنعون عنها. ولماذا يتزوجون ويصوتون وغير ذلك من الأشياء التى تحدث عندما يتفاعل الناس مع بعضهم. وعلى هذا، يمكن تعريف علم الاجتماع على أنه الدراسة العلمية للعلاقة الاجتماعية والمؤسسات والمجتمع.

وعرف ماكس فيبر علم الاجتماع بطريقة مختلفة. حيث يرى أن النشاطات الإنسانية متأصلة فى بعض الأفعال. وأن هذه الأفعال تهدف لتحقيق بعض الأغراض. فالأفراد – فى المجتمع – يقومون ببعض التصرفات من أجل تحقيق أهدافهم ومصالحهم. وعليه، فإن هذه الأفعال أو التصرفات تشكل المادة الأساسية لعلم الاجتماع. وقد كانت الأعمال الاجتماعية – منذ الإرهاصات الأولى لعلم الاجتماع وحتى وقتنا الحاضر – تعتبر بمثابة قانون علم الاجتماع(١).

كما ينظر البعض لعلم الاجتماع على أنه يمثل برنامج بحثي مختلف عما يتم استخدامه على أساس النموذج التصنيفي Categorical Model الذي تقوم فيه الموضوعات بوصف الأشياء الموجودة سلفاً. في حين يراه آخرون نمطا من الوصف للمجتمع فى داخل المجتمع ومن خلال موقع هذا المجتمع بين المجتمعات الأخرى. وفى ظل مثل هذا الإطار، يظهر علم الاجتماع كمجموعة من بيانات متخصصة لموضوعات فى ظل إطار تواصلي أعم، يعتمد في مجمله على فكرة التواصل(٢).

مما سبق، يمكن القول بأن علم الاجتماع هو الدراسة العلمية للمشاهد الاجتماعية للحياة الانسانية. فضلا عن ذلك، فإن علم الاجتماع هو مجموعة من المعارف المتعلقة بالتفاعل البشرى والمتمثلة بواسطة الأسلوب العلمى. والتفاعل الذى يعينه هنا هو عملية الاتصال المتبادل بين شخصين أو أكثر من خلال شكل من الإثارة والاستجابة لها. وعلى هذا، فإن علماء الاجتماع مهتمون بالإنسان الكائن فى المجتمع وبالجماعة الإنسانية. ومن واقع هذه التعريفات، يمكن النظر لعلم الاجتماع على أنه دراسة المجتمع البشرى والسلوك الاجتماعي ودراسة العلاقات الاجتماعية بأشكالها المختلفة [٣].

٣- طبيعة علم الاجتماع

علم الاجتماع مجال علمي يقوم – بطريقة منهجية موضوعية نظامية – ببحث وتقويم الواقع الاجتماعي فى ضوء الدلالات الإمبريقية (التجريبية) والتفسير. بيد أن هذا العلم لا يمكن نمذجته بشكل مباشر على نهج العلوم الطبيعية، لأن السلوك الإنساني يختلف عن عالم الطبيعة. كما أن المادة الأساسية للعلوم الطبيعية ثابتة وغير متغيرة إلى حد ما، فى حين أن السلوك الإنساني – بوصفه مادة علم الاجتماع – يتسم بالمرونة والديناميكية[٤]. فهو علم يسعى لمحاولة فهم القوى الموجودة فى حيز الوجود والتي تدفع باستمرار نحو تحريك المجتمع الحديث وتقوم فى الوقت ذاته بدور تكميلي فى هذه العملية من الحراك [٥].

والملاحظ أن كل فرد من أفراد المجتمع – أى مجتمع – يحاول إيجاد ومعرفة معنى ما يحيط به من أحداث وأشياء. ولكل منا بعض الأفكار الغامضة

عن المجتمع المحلى الذى نعيش فيه وعن كيفية التعامل والعيش فيه، ولدى كل منا فهم عام عن الواقع الاجتماعى الذى نحن جزء منه. وعلى الرغم من أن مفهوم المجتمع مفهوم مجرد، إلا أنه يصبح أكثر قابلية للفهم عند صياغته وفق نموذج حسي يوضح التداخل بين مكوناته ومدى التفاعل بين هذه المكونات.

وهناك فرق بين التفسيرات العادية لمعانى الحياة اليومية، والتفسير السوسيولوجي الذى تتوجه إليه العلوم الاجتماعية ويستطيع علماء الاجتماع عن طريق استخدام مناهج البحث العلمى وآليات استخلاص الدلالة والتصور العلمي السوسيولوجي لمختلف أنماط تفسيرات العلميات الاجتماعية والأنشطة الاجتماعية للوصول إلى رؤية وفهم أفضل لطبيعة المجتمع(٦).

ويؤكد ريمون آرون أن علم الاجتماع يتميز بأنه دائم البحث عن نفسه، وأن أكثر النقاط اتفاقاً بين المشتغلين به هى صعوبة تحديد علم الاجتماع. كما سروكين فى مؤلفه "النظريات السوسيولوجية المعاصرة" عام ١٩٢٨ آراء أكثر من ألف عالم وباحث فى علم الاجتماع، الأمر الذى يجعل من الصعوبة تحديد من نجح منهم فى تعريف علم الاجتماع. ومع التسليم بوجود تباينات كثيرة ارتبطت بتحديد العلم وموضوعه، فهى تباينات فرضتها طبيعة العلم فى نشأته وتطوره حيث تأثر بجماع الأطر المجتمعية والفكرية التى أحاطت به، بما فى ذلك الدين والفلسفة والعلوم الطبيعية، كما تأثر بطبيعة التغيرات التى طرأت ولاتزال تواصل تأثيرها على المجتمع الإنسانى، وبمجمل الظروف الاجتماعية والثقافية التى أحاطت بكل رائد من رواد العلم وجعلته ابتداء يرتبط فى خبرته بمجتمع دون غيره، زد على كل هذا حالة المنهج العلمى فى كل فترة من

الفترات التاريخية التى مر بها العلم، وهذه مؤثرات لم يكن تأثيرها وفقاً على علم الاجتماع، أو على أى علم آخر دون غيره من العلوم الإنسانية أو حتى الطبيعية.

والذى يجدر بنا التركيز عليه فى هذا المنحى، أنه برغم هذه التباينات؛ فإن ثمة نقاطاً أساسية تمثل ولو هيكلاً عاماً يتحرك من خلاله علم الاجتماع، ويتحدد به موضوعه الأساسى وهو هيكل يشير إلى أن علم الاجتماع هو علم معنى بدراسة الإنسان والمجتمع دراسة علمية تعتمد على المنهج العلمى، وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب فى البحث(٧).

ومع هذا، فمن أقوى الانتقادات التى أثيرت ضد الطابع العلمي للعلوم الاجتماعية أنها لم تستطع فى الحقيقة أن تخلص إلى أى شئ يماثل القانون الطبيعى.

وعلى أية حال، فإن أولئك الذين يعتقدون بأن علم الاجتماع هو نسق علمى ليسوا فى موقف يفرض عليهم أن يطالبوا بأن صياغة القوانين تشكل الغاية أو القيمة النهائية. إن جانباً من علم الاجتماع يتألف من أوصاف دقيقة فى إطار فئات تنطوي فقط على محاولات نظرية مبسطة. ولعلم الاجتماع الوصفي قيمة بالغة من زاويتين؛ **أولاً:** أنه فى حالة الدراسات المعاصرة، يقدم لنا معلومات لا غنى عنها فى حل المشكلات العملية، وكذلك فى وضع السياسات الاجتماعية الرشيدة والمفاضلة بينها. **وثانياً:** حينما يكون اهتمامنا محصوراً فى وصف مجتمعات صغيرة معروفة فإنه يقدم إسهاماً رئيسياً للدراسات الإنسانية. وإذا كانت التربية الإنسانية تعتمد على الارتباط التعاطفى بمجموعة متنوعة من

المواقف الإنسانية، وضروب الكفاح، والمثاليات، وأنماط الشخصية فإن الدراسات السوسيولوجية تعتبر عنصراً أساسياً فى هذا النوع من التربية. كما أن علم الاجتماع يستطيع أيضاً شأنه شأن الدراسات التاريخية والأدبية، بل والجوانب التاريخية للعلوم الطبيعية – أن يجعلنا على وعى بما تنطوى عليها الحياة الإنسانية من ثراء وتباين، ولكن على نحو أكثر تعمقاً من كل هذه الدراسات. إنه النقطة المحورية للدراسات الإنسانية الحديثة، هو قنطرة تربط بين العلم والإنسانيات.

ويبدو أن هناك وجهة نظر ثالثة، تتوسط أولئك الذين ينظرون إلى علم الاجتماع بوصفه نسقاً تاريخياً، والذين يعتبرونه "علماً طبيعياً للمجتمع". فبينما يؤكد أصحاب وجهة النظر هذه الطابع العلمى لعلم الاجتماع يقررون أن دراسة المجتمع تتطلب نموذجاً نظرياً مختلفاً، ومناهج تختلف عن تلك المستخدمة فى العلوم الطبيعية. غير أن هذه النقطة تبدو فى بعض جوانبها بسيطة للغاية. فكل علم يجب أن يكون له إطار ملائم للتفسير وكذلك مناهج مناسبة، وتظل فى الوقت ذاته الوحدة الأساسية للمنهج العلمى قائمة.وإذن، فالنقطة الأهم فى ذلك كله هى وجود اختلاف أساسى بين القوانين الاجتماعية والقوانين الطبيعية [٨].

كما يذهب والتر والاس إلى أن تعريفات ما هو اجتماعى تبدو متفقة مع الظاهرات الاجتماعية تتم من خلال مسايرة منظمة لسلوك كائن عضوى مع سلوك كائن عضوى آخر على الأقل. وإذا كان والاس استند فى استنتاجه هذا على تعريفات ما اجتماعى، وأيضاً تعريفات علم الاجتماع فإنه عاد ليشير إلى أن هذا الاتفاق وإن كان عاماً فو حافل بالتباينات والاختلافات، فالكائن العضوى

يمكن أن يكون إنساناً، كما يمكن أن يكون حيواناً، ومعيار الانتظام يمكن تحديده تحديدات نسبية بسيطة أو معقدة، ونفس الشئ يمكن أن يحدث بالنسبة للمسايرة وإيقاعها ودرجتها ومستواها، على أن والاس يبدو قانعاً بتحديد الواقع الاجتماعى بالسلوك الاجتماعى، ذلك لأنه يرى أن تحديد السلوك الاجتماعى وتفسيره يعد لب موضوع النظرية السوسيولوجية، مع تسليمه وتأكيده بوجود تبايناً وثنائيات جلية تتعلق بتعيين محاور هذا السلوك، ولقد حاول والاس أن يلخص موقف هذه التباينات وتلك الثنائيات فأوضح أن كل النظريات بما فى ذلك النظريات الكبرى حاولت تحديد ما هو اجتماعى وتعريفه من خلال فئتين أسايتين من العلاقات، تركز الأولى على العلاقات الموضوعية الواضحة للسلوك، فى حين تركز الثانية على العلاقات الذاتية أو الجوانب الموارية المستترة للسلوك.

وإذا كانت الجوانب الموضوعية والذاتية هى أكثر الجوانب التى ركزت عليها الاتجاهات النظرية فى تحديد الواقع الاجتماعى، فإن هناك أيضاً فئتين كبيرتين لتفسير ما هو اجتماعى، تركز الفئة الأولى على الظروف المفروضة على ما هو اجتماعى، وتركز الثانية على الظروف الناتجة عن ما هو اجتماعى، ومن الأمثلة على الفئة الأولى ما يعرف بالنظرية السوسيولوجية المعاصرة بالملزمات الوظيفية والتى تعنى أن ثمة وقائع عامة لا نعرفها تمثل شروطاً ضرورية لازمة لما هو اجتماعى وسابقة عليه وبالتالى تفسر الظاهرات الاجتماعية فى ضوء تكيفها وتواؤمها مع هذه الشروط.

وفى هذا يشير "أبنريل" Abnrele وآخرون إلى أن المتطلبات الوظيفية تمثل الأشياء التى لابد وأن تتم فى أى مجتمع لكى يستمر فى البقاء، وأما من أمثلة الفئة الثانية وليام أوجبرن W.Ogburn الذى ركز على العلاقات المتبادلة والمتداخلة بين التكنولوجيا والواقع الاجتماعى، فالمجتمع يساعد على الاكتشافات والاختراعات بجانب أن هذه الاكتشافات وتلك الاختراعات تؤثر فى المجتمع وفى المواقف السوسيولوجية، وهذا يعنى تركيز أوجبورن على الظروف التى تنشأ عما هو اجتماعى ومن داخله (٩).

وقد حدد بارسونز موضوع علم الاجتماع بأنه الفعل الاجتماعى كما يتجسد فى الأنساق الاجتماعية. ويعنى هذا أنه مادام النسق الاجتماعى يهدف – داخل الإطار العام لنسق الفعل – إلى تحقيق وظيفة التكامل فإن التكامل هو مجال الدراسة فى علم الاجتماع. وهكذا فإننا إذا أخذنا النظرية العامة فى الفعل كنقطة انطلاق، فإننا يجب أن ننظر إلى علم الاجتماع على أنه يتميز عن العلوم الاجتماعية الأخرى بميدان دراسته الخاص (١٠).

ويخلص أليكس انكلز إلى أن هناك ثلاثة طرق رئيسية لتحديد موضوعات علم الاجتماع، يمكن أن نذكرها فيما يلى :

١) الطريق التاريخى :

وهنا نحاول أن نحدد الاهتمامات التقليدية الأساسية التى شغلت علم الاجتماع كعلم، وذلك من خلال دراسة الكتابات السوسيولوجية الكلاسيكية،

فنحن فى هذه الطريقة نسأل باختصار: "ما هو رأى الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع ؟ ".

٢) الطريق الأمبيريقى :

وهنا ندرس الأعمال الاجتماعية المعاصرة لكى نقف على الموضوعات التى يوجه إليها العلم أكبر اهتمامه. بمعنى آخر نحن نتساءل هنا: "ماذا يفعل علماء الاجتماع المعاصرون؟".

٣) الطريق التحليلى (أو النظرى)

وهنا نقوم بتحديد موضوع واسع للعلم تحديداً تعسفياً، ونحدد كذلك موقفه بين العلوم الأخرى من خلال طرح التساءل: ما هو حكم العقلى هذا الموضوع؟ (١١).

والواقع أن الحكمة تدعونا إلى الاستعانة بالطريقة التاريخية فى تحديد موضوعات العلم. فهذا السبيل يتيح لنا فرصة الاستفادة من حكمة الأجيال السابقة. ثم إنه ييسر لنا فهم الموضوعات التى لا يتسنى لنا فهمها دون الإحاطة بخلفيتها. ولو أننا نعرف بالطبع أن الناس يمكن أن يقرؤوا نفس التاريخ، ويفهموه بطرق مختلفة تمام الاختلاف. ليس هذا فقط بل إن المنهج التاريخى يعرضنا لخطورة أن يصاب تفكيرنا بالجمود، حيث أن التراث قد يكون عاجزاً فى بعض الأحيان عن التصدى بشكل فعال للمشكلات التى يطرحها علينا الحاضر والمستقبل.

٣ - وظائف علم الاجتماع

الأولى: وظيفة علمية تعنى بتطوير العلم نفسه، والنقد الذاتى لمختلف الجهود التى بذلت على الصعيدين النظرى والمنهجى بغية الوصول بالعلم إلى درجة أكبرمن الكفاءة والدقة فى الوصول إلى القوانين الاجتماعية التى لا يصل العلم إليها إلا بعد رحلة طويلة تسير فى خطوات المنهج العلمى بدءاً من الملاحظة وحتى وضع القوانين، وما بينهما من خطوات تحليلية وتفسيرية وتعميمية، على أن يفضى توظيف هذه القوانين إلى أوضاع أفضل تمكن من التنبؤ بمسار المجتمع الإنسانى وبناءه. وهذا المخرج أو المنتج السوسيولوجى لا يمكن التوصل إليه بدقة إلا باطار نظرى، يتسق مع طابع العلم من جانب، ويكون أكثر قدرة على تصور أبعاد الواقع ومكوناته فى تناقضاتها، وحركتها وتغيرها.

الثانية : وظيفة مجتمعية، وهى تعنى جميع الأدوار التى يقوم بها العلم لمجتمع معين، متدرجاً فى العطاء حتى الوصول إلى المجتمع الإنسانى ككل. وهذه الوظيفة يمكن أن تتدرج تحتها وظائف فرعية كثيرة تبدأ بفهم الواقع وتفسيره، وتناول مشكلاته والتخطيط لتناولها وعلاجها سواء كانت هذه المشكلات فئوية أو قطاعية أو مجتمعية شاملة تشمل المجتمع على وجه العموم(١٢).

والوظيفة الثانية هى الأهم لأن العلم أياً كان موضوعه بمثابة نشاط إنسانى مستهدف ومقصود، وهذا يعنى أول ما يعنى ارتباط العلم بالسياق

المجتمعى وتأثره بالمؤثرات التى تحدد النشاط الإنسانى زمانياً ومكانياً، الأمر الذى جعل هذه الوظيفة الاجتماعية متباينة بين فترة وأخرى، وبين مجتمع وآخر، بل وبتباين الموقع الطبقى الاجتماعى الذى ينتمى إليه الباحث وينظر من خلاله إلى الواقع الاجتماعى. وهنا يمكن التمييز بين موقفين أساسيين: تتمثل الأول فى الوقوف إيجابياً مع النظام الاجتماعى القائم، وبالتالى صناعة أفكار نظرية، ومناهج وطرائق للوصول إلى بيانات علمية تدعم هذا النظام وتبرهن على سلامته. وهذا الموقف يكاد يكون موقف كل الرواد المؤسسين للعلم عدا واحداً فقط هو كارل ماركس فقد اقام أوجيست كونت : إنك تدرس لكى تضبط "، فى حين أن دور كايم أشار إلى أن علم الاجتماع يجب أن تكون له فوائد عملية، دون تحديد وجهتها، وإن كان يفهم ضمناً من كتاباته أن هذه الفوائد تتمثل فى علاج المشكلات الاجتماعية التى تحافظ فى النهاية على النظام الاجتماعى القائم، وتوازنه، وعلى النقيض من موقف هذين المفكرين كان ماركس يقول – خاصة فى رده على فويرباخ – لقد درس الناس العالم على أنحاء عدة غير أن المهم هو التغيير " ويفهم بوضوح – من إطاره النظرى – أن وجهة التغيير التى يقصدها تعنى التوجه نحو الإنسان وجعل غده أكثر رحابة وعدالة، وإرادته أكثر تحرراً، خاصة الإنسان المضطهد والمستغل، سواء كان عاملاً أو فلاحاً أو ما شابه هذا. ولكن كيف يمكن لعلم الاجتماع أن يحقق وظائفه الإنسانية ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تعنى أولاً دراسة الواقع وتشخيصه وتفسيره. وتعنى ثانياً تقديم بدائل لتصورات التغيير، وتعنى ثالثاً: العمل على إنضاج وعى الجماهير المشاركة فى المجتمع، من خلال وضعها على طريق التفكير العلمى، وتبصيرها بما هو حادث حولها، سلباً وإيجاباً. وهذا يبرز بجلاء أهمية الدور النقدى لعلم

الاجتماع، ولا يقصد بالنقد هنا أن يكون وحيد الجانب فى اتجاه النظام الحاكم، وإنما يكون متفاعلاً متوجهاً إلى القمة والقاع، وإلى الحاكم والمحكوم، أو – باختصار – إلى المصلحة العامة. وكلمة العامة تعنى الأغلبية العريضة المكونة للمجتمع. وتعنى رابعاً : ضرورة المشاركة فى صناعة القرارات وفى التخطيط المجتمعى. وبدون الدور الأخير يصبح الدوران الأولان موقوفين. ويصبح الدور الثالث هو الممكن والمتاح، إذا تجاوز الباحث آنيته وأنانيته وأضحى ملتزما أمام المجتمع والإنسان لأن علم الاجتماع كما سبقت الإشارة هو علم دراسة الإنسان والمجتمع(١٣).

ثانياً: النظرية الاجتماعية

لا غنى لأي باحث فى أى علم من العلوم عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها، وفى اختياره للفروض التى يريد أن يختبر صدقها، وفى اختياره للمنهج والأدوات التى سيستخدمها فى دراسته. فبدون هذه النظرية يتخبط فى جمع معلوماته، بحيث تأتى غير مترابطة، ثم يعجز فى النهاية عن إضفاء معنى عليها أو تفسيرها.

ويذهب سمير نعيم إلى أن الهدف الرئيس للنظرية هو فهم المجتمع الذي نعيش فيه ومحاولة الإسهام فى تطوير الحياة الاجتماعية فيه. وفهم المجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الدراسة الفعلية لجوانب الحياة الاجتماعية والتعرف عليها، ولكن المجتمع الذي نعيش فيه ونريد أن نفهمه يضم

عدداً لا نهاية له من الوقائع الاجتماعية Facts، وكل منها يمكن أن يكون موضوعاً للدراسة.

ولكى نستطيع أن نختار أياً من هذه الموضوعات لابد أن يوجد لديك تصور عام عن المجتمع الذى توجد فيه؛ أى لابد أن يكون فى ذهنك هدف ما لهذه الدراسة ولابد أن تكون لديك طريقة ما لدراسة ما تختاره من موضوعات. وفوق هذا كله لابد أن تكون على علم بجهود من سبقوك إلى التفكير فى ذلك وما توصلوا إليه من نتائج، وما وقعوا فيه من أخطاء حتى تستطيع تجنبها، أى أنك لا تستطيع أن تبدأ أبداً من نقطة الصفر، وإلا فإنك لن تضيف شيئا جديداً أبداً ، فالعلم بصفة عامة ذو طبيعة تراكمية [١٤].

والبحث فى مجال تاريخ العلوم الاجتماعية يتخلله الكثير من التحليلات لمختلف النظريات الاجتماعية، القديمة منها (الكلاسيكية) أو الجديدة (الحداثة)، المحافظة أو التقدمية، وذوات المنظور الجزئي أو الكلى. فوجود العديد من النظريات الاجتماعية لا يعرض فقط لتطور علم الاجتماع، بل يبين كذلك تعقد وديناميكية الظواهر الاجتماعية، وعدم القدرة على وضع علاقات رياضية حاسمة فى البحث العضوي الاجتماعي Social Organism Research. وفى الوقت ذاته، فإنها تساعد فى إظهار الحقائق الايجابية عن انفتاح وتطور إمكانات علم الاجتماع. كما أن تنوع الخيارات الموضوعية والمنهجية بين علماء الاجتماع تدعم هذا الاتجاه. لهذا السبب، يمكن القبول برؤية "انتونى جيدينز" Antony Giddens التى أوضحها فى كتابه "النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع الحديث"، المتعلقة باتجاهات التطور متعددة الأبعاد لعلم الاجتماع

كعلم، وتأكيده أنه فى غضون فى الفترة الأخيرة من تطور العلوم الاجتماعية، قد تخلت هذه العلوم عن الفرضية التى ترى أن أهداف ومنطق العلوم الاجتماعية تتماثل – بشكل أو بآخر – مع تلك الخاصة بالعلوم الطبيعية (١٥).

١- تعريف النظرية الاجتماعية

تنعكس اختلافات العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية فى المداخل التنظيرية والمنهجية للبحث الاجتماعي فى تأويلات النظرية الاجتماعية كمصطلح. فمصطلح "النظرية" Theory ذاته لا ينجم عنه أى اختلاف جوهري؛ من حيث أن النظرية تتضمن مجموع المعارف المنظمة والفرضيات التي يمكن من خلالها التحقق التجريبى من الظاهرة والتنبؤ باتجاهات تطورها، أو من حيث أنها تستطيع الكشف عن بعض المشكلات العلمية غير المحلولة. لكن على النقيض من ذلك، هناك العديد من التعريفات المتنوعة لشرح مصطلح النظرية الاجتماعية Social Theory وتصنيفاتها المختلفة.

ويضع "ريتزر" Ritzer أربعة معانى للنظرية الاجتماعية: النظرية الاجتماعية بوصفها تمثيل منظم ومتزامن لبعض الأفكار، وبوصفها دراسة المبادئ والتصنيفات فى تاريخ الفكر الاجتماعي، وبوصفها شكل من فرضيات البحث الجزئية أو النظامية، وأخيرا بوصفها نوع من النظريات العلمية تتبع قوانين المنطق لتأسيس الاتجاه العلمى. والتعريف الأكثر قبولا للنظرية الاجتماعية من هذه التعريفات، هو الذي ينظر لها كشكل من النظرية العلمية والتي من خلال تطبيق الطرائق المنهجية للبحث العلمي، تقوم بتأسيس نظم

صغيرة أو كبيرة للقوانين العلمية والفرضيات المتعلقة بالمجتمع ككل أو المتعلقة بظواهر مجتمعية محددة.

ويعرف "نيكولاس مولنز" Nicholas Mullins النظرية الاجتماعية على أنها شكل من الإبداع، يهدف لتحليل وتعميم العلاقات التبادلية بين الناس من خلال تطبيق عدد معين من الرؤى العامة أو المتغيرات، والتي تتحدد علاقاتها المتداخلة من قبل قوانين نظرية محددة. ويشير هذا التعريف إلى الحاجة لإدراك العناصر البنيوية الأساسية للنظرية الاجتماعية. فضلا عن ذلك، فإن النظرية الاجتماعية تستلزم ملاحظة المبادئ والقوانين الكامنة فى الشكل المعياري للعلم الاجتماعي وللعلم بصفة عامة، واستخدام معرفة علمية محددة عن الظاهرة المرتبطة بالنظرية ذاتها (١٦).

والمؤرخ لعلم الاجتماع يستخدم نظريته كمعيار لانتقاء الحقائق التاريخية ذات الصلة، ثم على أساس تلك الحقائق، يقوم بعرض وتأكيد نظريته التى تم على أساسها الاختيار. كما أن هناك طريقة أخرى يتم بها إثبات القوانين السوسيولوجية بشكل ذاتي، وذلك من خلال اتخاذ عامل تاريخي معين كقاعدة، وتحييد كافة العوامل الأخرى والظروف التى تعمل من خلالها. فمثلا، إن كانت الاستجابات المتباينة تحدث فى سياق ظروف متماثلة اقتصادياً، يكون العامل الأساسي الذى يتم القياس عليه هو العامل الاقتصادي. وهنا لابد من التأكيد على أن النظام العام لعلم الاجتماع يختلف فى مشهد أساسي عن أى علم آخر. فالعلوم الطبيعية تعتمد على إمكانية التجربة وعزل بياناتها عن العالم الكلى

للخبرة، أما علم الاجتماع فيستهدف التطبيق على المجتمع ككل، فالمجتمع هو محور اهتمامه، وبالتالي لا يمكن عزلهما عن بعض ولا يمكن استثناء شئ.

وفى الممارسة العلمية، تتخذ القوانين الاجتماعية واحدة من ثلاثة أشكال، فإن لم تكن مزاعم دوجماتية حول مشهد من التاريخ، فإنها تكون إما بديهيات أو توضع لملائمة الحقائق. حيث يجب أن تخضع لمزيد ومزيد من التأهيل حتى تصبح فى النهاية قابلة للتطبيق على حالة واحدة (١٧).

٣- أهمية النظرية وأسس اختيارها

والإشكالية الأساسية هى أن علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية – على الرغم من وجود واقع اجتماعي له ووجود موضوع مستقل عن العالم الذي يبحثه – فإننا نجد نظريات عامة متعددة كل منها يقدم تصوراً لهذا الواقع يخالف ذلك الذي يقدمه غيرها. وبالتالي فإننا سنجد تفسيرات مختلفة لنفس الظاهرة الاجتماعية الواحدة. وهنا يواجه أى دارس لهذه النظريات بموقف حتمي يتعين عليه فيه أن يقارن بين هذه النظريات المختلفة ويختار من بينها الأصلح أو الأكثر إقناعاً. إلا أن عملية المقارنة هذه تتطلب بالضرورة تقييماً لكل منها على حده، فعلى أى أساس يتم هذا التقييم ؟ هناك عدة أسئلة رئيسة ينبغي علينا عند تقييمنا لأي نظرية أن نقوم بطرحها ونحاول الإجابة عليها.

ففى أحيان كثيرة يلجأ دارسو النظريات الاجتماعية إلى تقييم هذه النظريات والمفاضلة بينها على أسس غير علمية، ويتعاملون مع هذه النظريات كما لو كانت سلعاً أو أشِياء مما تقابلهم فى حياتهم اليومية يعتمد اختيارهم

لأحدها دون الأخرى على المزاج الشخصى أو مدى جاذبيتها الانفعالية، أو لأنها الأكثر رواجاً، وبعضهم يتبنى نظرية أخرى لأن أشخاصاً معينين يثق فيهم (كالأستاذ مثلاً) يتبنونها، والبعض الآخر يتبنى نظرية ثالثة لأنها تبدو بسيطة واضحة أو حتى لأنها تبدو عميقة غامضة يصعب على الآخرين فهمها ، .. لكن هل هكذا يجب أن نفاضل بين النظريات فى العالم؟

لابد أن توجد نظرية عامة تنطبق على الظاهرة الاجتماعية بوجه عام وتقدم تصوراً عاماً عنها، ثم على ضوء هذا التصور العام توجد نظريات نوعية تقدم تفسيرات خاصة لكل ظاهرة اجتماعية على حده [١٨].

فبدون النظرية تصبح الحقائق التى يجمعها العلماء من خلال ملاحظاتهم حشداً هائلاً غير منظم وغير مفيد من الملاحظات. فهناك بين علماء الاجتماع من يقتصر عملهم على مجرد جمع وقائع جزئية عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية دون أن تؤدى هذه الوقائع إلى صياغة نظرية عامة عن المجتمع ودون أن يسترشدوا فى جمع هذه الوقائع بنظرية عامة. مما يجعل هذه البحوث عديمة القيمة، أو قليلة على أحسن تقدير بالنسبة لتطور المعرفة العلمية بالمجتمع البشرى. وهناك فريق آخر من علماء الاجتماع يقومون بصياغة نظريات عامة عن المجتمع تتصف بالصبغة التأملية أو المكتبية دون أن تعتمد هذه النظريات على وقائع تمت ملاحظتها والتأكد من صحتها ودون اختبار لما تتضمنه هذه النظريات من تعميمات واستنتاجات. وقد أطلق رايت ميلز على الفريق الأول أصحاب اتجاه الإمبريقية أو التجريبية المجتزأة Obstructed Empiricism، وعلى الفريق الثاني أصحاب اتجاه النظريات

المتضخمة Grand Theories. ويبين ميلز عقم الاتجاهين، وأن كلا منهما يؤدى إلى عرقلة نمو علم الاجتماع ويعوق الوصول إلى الفهم العلمي السليم للظواهر الاجتماعية.

وهذا الانفصال بين جانبي العلم إنما يتنافى مع مسلمات المنهج العلمى التى تتضمن جميعها فكرة العلاقة الجدلية بينهما. فعدم تطبيق المنهج العلمى فى دراسة الظاهرات الاجتماعية لا يرجع إلى أن هذه الظاهرات فى حد ذاتها لا تخضع للدراسات باستخدام المنهج العلمى، وإنما يرجع إلى معوقات تتبع من طبيعة البناء الاجتماعي للمجتمعات التى توجد فيها هذه العلوم (١٩).

والباحث فى ميدان العلوم الاجتماعية بوجه عام وفى ميدان علم الاجتماع بصفة خاصة سوف يواجه بتعدد النظريات العامة التى تدعى كل منها أنها تفسر ظاهرة الحياة الاجتماعية بوجه عام، وبالتالى تعدد النظريات النوعية عن الظاهرة الخاصة التى يدرسها. ويعرف دارسو علم الاجتماع أن هذا العلم يضم نظريات متباينة منذ نشأته مثل نظرية كونت الوضعية ونظرية أميل دوركايم عن التضامن الاجتماعي ونظرية ماكس فيبر عن الفعل الاجتماعى ونظرية هربرت سبنسر التطورية العضوية ونظرية كارل ماركس المادية التاريخية. كما يعلم أن علم الاجتماع المعاصر لم يتخلص من هذا التعدد النظري، بل ظهرت به نظريات حديثة متباينة تمثل امتدادا للنظريات الكلاسيكية مثل النظرية البنائية الوظيفية والوصفية المحدثة والسلوكية الجماعية والفينومينولوجيا والنظريات الراديكالية. بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى وجود اتجاه أو تيار فى علم الاجتماع يؤكد على عدم أهمية وجود نظرية على الإطلاق،

ويدعو إلى أن يستمد الباحث أفكاره من الواقع مباشرة؛ وهو ما يسمى الاتجاه الإمبريقى أو التجريبى .

ليس أمام الباحث فى ميدان الظاهرات الاجتماعية إذن مفر من الاختيار بين النظريات وهو أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يستغنى عن هذه النظريات جميعها ويتبع ما سمى بالاتجاه الإمبريقي (التجريبى)، وإما أن يختار نظرية ما من بين هذه النظريات يعتبرها الأصدق والأكثر علمية. والواقع أن معظم الباحثين الاجتماعيين، وخاصة المبتدئين منهم يحددون مواقفهم على أسس غير علمية [٢٠].

ويمكن للباحث أن يسترشد ببعض الأسس عند تقييمه للنظريات فى ميدان علم الاجتماع وهى:

<u>أولاً</u> – الإلمام بالنظريات العامة الرئيسية فى علم الاجتماع بدون استثناء وألا يستبعد لأى سبب نظرية عامة رئيسية من نطاق معرفته .

<u>ثانياً –</u> الإطلاع على الدراسات النقدية لمختلف النظريات وخاصة النقد المتبادل بين النظريات الرئيسية ورد أصحاب كل نظرية على النقد الموجه لها.

<u>ثالثاً –</u> استخلاص المسلمات الأساسية التى تركز عليها كل نظرية، وإثارة التساؤلات الآتية والحصول على إجابات عليها من النظرية ذاتها:

١) كيف تصور النظرية الواقع الاجتماعي بشكل عام؟
٢) كيف تصور النظرية طبيعة الإنسان؟

٣) ما نوعية المتغيرات التى تعتمد عليها النظرية فى تفسير الظاهرات الاجتماعية المختلفة؟

٤) هل تميز النظرية بين القوانين العامة التى تنطبق على المجتمع الإنسانى ككل وبين القوانين النوعية التى تنطبق على كل نوع من أنواع المجتمعات وكل مرحلة من مراحل تطوره، أم تقوم بالتعميم من واقع نوع واحد من المجتمعات (كالمجتمعات الغربية) على الإنسانية ككل؟

٥) ما المضمون الأيديولوجى للنظرية؟

٦) ما الأدلة الواقعية على صدق المسلمات والاستنتاجات التى تتضمنها النظرية؟

٧) ما الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية إذا استرشدنا بها فى التطبيق أو فى رسم السياسات الاجتماعية؟

فإثارة الباحث لهذه التساؤلات بعد استيعابه للنظريات الاجتماعية وحصوله على إجابات عليها تساعده على اتخاذ موقف منها [٢١].

٣- تصنيف النظريات الاجتماعية

ينجم عن تعدد وتعقد النظريات الاجتماعية صعوبات فى تشكيل معايير ثابتة لتصنيفها وتنظيمها. ووفقا لمستوى التعميم، يمكن تصنيف النظريات الاجتماعية إلى نظريات عامة عن المجتمع (التى تسمى النظريات الكبرى Great Theories) ونظريات محددة عن المجتمع (وتسمى النظريات الاجتماعية الصغرى Small Sociological Theories). ويرى مؤرخ النظريات الاجتماعية "جوريكار Goricar" أن النظريات العامة عن المجتمع تتضمن النظم السوسيولوجية لكونت وسبنسر وفيبر والنظرية الماركسية. أما النظريات الاجتماعية المحددة (الخاصة) فهى السمة الغالبة على توجه علم

الاجتماع الحديث، والتى من خلال البحث الامبريقى والتنظيرى المعقد – تحاول رسم صورة سوسيولوجية مناسبة لظواهر اجتماعية محددة (كالمدينة والقرية والعمل والأسرة والجماعات الاجتماعية والبنية الاجتماعية والتغيرات الاجتماعية... الخ). ووفقا لهذه النظريات الصغرى، فإن البحث الاجتماعى يهدف لاظهار بنية وتطور قوانين ظواهر اجتماعية معينة فى فترات زمنية محدودة. ويرى "ميرتون" Merton أن هذه النظريات المحددة لا تسعى لتقسيم المعرفة، بل إنها تعمل على دمجها ودعمها عبر البحث الامبريقى القائم على النظرية والتعميمات السوسيولوجية. وتمثل تلك النظريات – إلى حد ما – استجابة للقبول بنظرية التطور الاجتماعى كشكل من التقدم الاجتماعى الخطى الذاتى.

وعلى النقيض من اتجاه علماء الاجتماع الكلاسيكيين لوضع نظريات كانت تميز النظم الاجتماعية القائمة فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وبالتوافق – بدرجة ما – مع النظام الفلسفى فى الفكر، فإن الباحثين الاجتماعيين المعاصرين – وفقا لما يراه ميرتون – يسعون للبحث الظرفى والإمبريقى القائم على أساس نظري فى كل مفردة من مفردات المجتمع.

كما يمكن تصنيف النظريات الاجتماعية وفقا للبلد التى تسود فيها (مثل النظريات الاجتماعية الأمريكية، والألمانية والفرنسية والانجليزية... الخ) ووفقا لوقت ظهورها (النظريات الاجتماعية للقرن التاسع عشر، والنظريات الحديثة والقديمة) ووفقا للعامل الأيدولوجى (نظريات الطبقة الوسطى للمجتمع والنظرية

الماركسية للمجتمع) ووفقا للمفهوم العلمي ومحتوى النظرية الاجتماعية (النظرية الحيوية، النظرية النفسية والنظرية الشكلية... الخ).

ويمكن كذلك تصنيف النظريات الاجتماعية وفقا لمستوى نمو وتماسك النظرية الاجتماعية. ومن هذه الأنواع: المفاهيم والتعميم التجريبى (الإمبريقى) والمبادئ الأساسية والنماذج الاجتماعية. ويرى "تيرنر" Turner فى هذا الصدد أن المفاهيم لا تكون مناسبة إلا للنظريات غير المنفتحة والأفكار أو "المنطلقات" التى لا يمكن التعامل مع كنظريات فى أى موضع نظامى جاد. أما التعميمات التجريبية، فغالبا ما تتواجد فقط فى التوصيفات الإمبريقية أو في محاولة تعميم بعض الظواهر الجزئية. وبالنسبة للمبادئ الأساسية الاجتماعية فلا تعدوا كونها فى أغلب الأحوال – عناصر ومساعي لإضفاء الطابع النظامي لظواهر معينة، وعادة ما تقتصر على تأريخ أو سير ذاتية لأشخاص هامين فى علم الاجتماع. إذن، فلا يوجد سوى النماذج والاتجاهات نحو بناء منمذج التى يمكن أن تمثل الطريق الحقيقي لتطوير النظرية الاجتماعية [٢٢].

٤- وظائف النظرية الاجتماعية

تتلخص وظائف النظرية فى العلم فى ست نقاط أساسية وهى:

١) **تحديد الاتجاه الأساسى للعلم** عن طريق تحديد نوع المادة أو الوقائع التى يجب جمعها عن الظاهرة المدروسة. فلو كانت الظاهرة موضوع الدراسة مثلاً هى كرة القدم، فإن النظرية الاقتصادية سوف توجه الباحث لجمع حقائق عن أنماط العرض والطلب التى تتصل بتسويقها، فى الوقت الذى تحدد النظرية الكيماوية جمع حقائق عن تكوين الكرة من الناحية الكيميائية،

وتوجه النظرية الفيزيائية الباحث نحو حقائق عن كتلة الكرة والضغوط المختلفة التى تؤثر على ثقلها وسرعتها، أما النظرية الاجتماعية فهى توجهه لجمع حقائق تتعلق بالأنشطة الاجتماعية المتصلة بالكرة ونوعية التنظيمات الاجتماعية الخاصة بهذا النشاط وهكذا.

٢) **تقديم إطار تصوري** يسترشد به العالم عند جمعه للحقائق. وهذا الإطار يساعد الباحث على إدراك ما بين الوقائع من علاقات ويرشده إلى نوعية الوقائع التى يتعين عليه جمعها.

٣) **تلخيص الوقائع وتلخيص العلاقات بينها:** فكل قانون وكل فرض بل وحتى كل مفهوم تتضمنه النظرية ليس إلا تلخيصاً أو تكثيفاً هائلاً لعدد لا نهاية له من الملاحظات التى قام العلماء بإجرائها. فمفهوم الخلية الحية مثلاً يلخص فى كلمة واحدة ملاحظات عديدة أجريت عن شكل أو صورة معينة من المادة ومفهوم الأسرة يفعل نفس الشئ، والقوانين تلخص العلاقات المتعددة بين الظاهرات موضوع الدراسة، والنظرية تلخص العلاقات بين القوانين، وبدون عملية التلخيص والتنظيم هذه يتعذر تماماً الإلمام بمكتشفات العلم أو استنتاج أى شئ منها (٢٣).

٤) **التنبوء بالوقائع:** إذا كانت النظرية تلخص الوقائع وتقرر وجود نظام عام يربط بين الملاحظات التى يتوصل إليها الباحث، فإنها تصبح أيضاً تنبؤات بما سيحدث فى المستقبل. فقولنا مثلاً أن المعادن تتمدد بالحرارة يعنى فى نفس الوقت أنه إذا لم تترك مسافات مناسبة بين قضبان السكك الحديدية فإنها سوف تتقوس نظرا لتمددها. وقولنا أن البعوض ينقل مرض الملاريا يعنى فى نفس الوقت تنبوءاً بأن نسبة هذا المرض ستقل إذا ردمنا البرك والمستنقعات التى يتوالد فيها البعوض وهكذا.

٥) **تحديد أوجه النقص فى معرفتنا:** فنحن لا نستطيع أن نعرف ما ينقصنا فى أى مجال إلا إذا عرفنا أولاً ما هو متوفر لدينا. وإذا كانت المعرفة المتوفرة

لدينا من الكثرة بمكان، فإنه يصعب علينا أن نعرفها جيداً. ولما كانت النظرية تلخص وتنظم المعرفة المكتسبة، فإنها تساعدنا على التعرف على ما ينقصنا من معرفة، وبالتالي ترشدنا إلى الجوانب التى يجب أن نركز بحثناً عليها.

٦) **النظرية تقوم بمهمة ترشيد التطبيق:** فالغاية الأساسية من العلم هي التطبيق، بمعنى أن العلماء يدرسون ظاهرات الكون ويحاولون التوصل إلى القوانين التى تحكمها من أجل استخدام نتائج دراساتهم فى التعامل مع الطبيعة والسيطرة عليها. والنظرية العلمية بما أنها تلخيص لكل الحقائق التى اكتشفها العلماء، فإنها تقوم بمهمة ترشيد وتوجيه التطبيقات العلمية فى مجالات الحياة المختلفة. فقوانين الطفو مثلاً ساعدت على بناء السفن ونظرية الجاذبية ساعدت على بناء الطائرات، وهكذا [٢٤].

المراجـــــع

1- Bottomore, T. B., Sociology: A guide to Problems and Literature, Bombay: Blackie and sons, 1978, p. 2.
2- Salvino A. Salvaggio, and Paolo Barbeesino, Eigen-Mechanism and the History of Sociology: A reflexive Writing, in Salvaggio and Barbesino (eds), "Autopoietic Systems Theory and the System of Science", Collected Papers on Niklas Luhmann, Social Science Information, Vol. 35, No. 2, June 1996, p. 3.
3- Bottomore, T. B., op cit, p.3.
4- Ibid.
5- Piet Strydom, Discourse and Knowledge: The Making of Enlightenment Sociology, Liverpool: Liverpool University Press, Reviewed by: John Varty, 2000, p. 76.
6- Murray Morison, Methods in Sociology, Longman, London and New York, 1986, pp. 5-8.

٧- عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، ع ٤٤، الكويت، أغسطس ١٩٨١، ص ١٨.

٨- بوتومور، مرجع سابق، ص ص٧٥٣-٥٤.

٩- غريب سيد أحمد وعبد الباسط عبد المعطى، علم الاجتماع، سلسلة علم الاجتماع وقضايا الإنسان والمجتمع، الكتاب الرابع، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧، ص ص٩٨-٩٩.

١٠- جى روشيه، علم الاجتماع الأمريكى: دراسة لأعمال تالكوت بارسونز، ترجمة: محمد الجوهرى وأحمد زايد، دار المعارف، ١٩٨١، ص ٩٩.

١١- أليكس انكلز، مرجع سابق، ص ص ٣١ – ٣٢.

١٢- عبد الباسط عبد المعطى، مرجع سابق، ص ص٢١ – ٢٢.

١٣- المرجع السابق، ص ٢٢ – ٢٣.

١٤- سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص٤٧-٤٨.

15- Petar Hafner, Theories and Paradigms in Sociology, The scientific journal FACTA UNIVERSITATIS Series: Philosophy and Sociology Vol.1, No. 5, 1998, p. 455.

16- Ibid, p. 456.

17- Alfred Cobban, Chapter II: History And Sociology, in Alfred Cobban (ed), "The Social Interpretation of the French Revolution" Cambridge: Cambridge University Press, 1999, pp. 4-5.

١٨- سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص٥١-٥٣.

١٩- سمير نعيم أحمد ، المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية ، ط٤ ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٧ ، ص ص ٧٣– ٧٦.

٢٠- المرجع السابق ، ص ٧٧ .

٢١- المرجع السابق ، ص ٧٧-٨١.

22- Petar Hafner, op cit, pp. 460-461.

٢٣- سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣١.

٢٤- المرجع السابق، ص ٣٢ .

الفصل الثالث

علم الاجتماع أهم الرواد

١ – أوجست كونت

٢ – هربرت سبنسر

٣ – إميل دوركايم

٤ – ماكس فيبر

٥ – كارل ماركس



أولاً – الرواد المؤسسون

هناك أربع علماء ربما لا يختلف أى من المشتغلين بعلم الاجتماع – مهما كانت ميوله الخاصة أو نزعاته أو تعصبه – على اعتبارهم الشخصيات البارزة فى تاريخ علم الاجتماع الحديث. هؤلاء العلماء هم: أوجيست كونت، وهربرت سبنسر، أميل دور كايم، وماكس فيبر، وهم يغطون معاً القرن التاسع عشر بأكمله وأوائل القرن العشرين، وفى الحقبة التى تشكل فيها علم الاجتماع الحديث وتحددت معالمه. كما أنهم يمثلون القوميات الرئيسة التى ازدهار فيها علم الاجتماع فى بداية عهده، والتى بدأ يتكون فيها تراثه الحديث، وهى فرنسا، وانجلترا، وألمانيا، كما مارس كل منهم تأثيراً شخصياً عميقاً على تصور علم الاجتماع كميدان من ميادين المعرفة. لذلك يبدو من المفيد بوجه خاص أن نعرض لآرائهم حول الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع[١].

يضاف إلى هؤلاء كارل ماركس وماديته التاريخية، إذ يرى بعض علماء الاجتماع أن علم الاجتماع الأكاديمى الغربى بأسره قد نشأ تحت تأثير ماركس وأنه ليس سوى سلاح أيديولوجى للبرجوازية لمواجهة الماركسية كسلاح أيديولوجى للاشتراكية. ويذهب عالم الاجتماع الأمريكى زايتلين إلى حد اعتبار أن أعمال بيروباريتو وموسكا وميشيلز ودور كايم ومانهايم حواراً مع شبح ماركس [٢]. ولا يعنى عرض سير أو بعض أعمال هؤلاء العلماء وأيديولوجياتهم قناعة الباحث بأن تلك هي الرؤية الصحيحة؛ بل إنه عرض لجزء من تاريخ العلم بسلبياته وإيجابيته.

١- أوجست كونت Augnste Conte (١٧٩٨-١٨٥٧)

هو أوجست كونت، أبو علم الاجتماع، عاش فى الفترة (١٧٩٨-١٨٥٧). وكان يرى أننا لا نستطيع فهم العالم ومشاهدة المختلفة إلا من خلال الملاحظة والاستدلال. وبالرغم من رفضه لوجود الكيانات النظرية. إلا أنه آمن بأن كل الشرح والتنبؤ يقوم على أساس التعاقب القانوني وليس العلاقة السببية؛ ذلك لاعتقاده أن العلاقة السببية لا يمكن اختزالها إلى مجرد عملية ملاحظة، وأن كل علم له سماته الفريدة المميزة له، وأنه يتشابه مع العمليات الاجتماعية فى أنه يمر عبر ثلاث مراحل: المرحلة اللاهوتية Theological Stage القائمة على القوة الخارقة للطبيعة، والمرحلة الميتافيزيقية Metaphysical Stage القائمة على التجريد، والمرحلة الوضعية (أو العلمية) Positive or Scientific Stage القائمة على العلاقات بين الحقائق التجريبية. ولم يقتصر تأثير نظريته الوضعية Positivism على عصره فقط، بل امتد أثرها إلى الاتجاه الوضعي المنطقي للقرن العشرين. ويوضح كونت فى كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية" Cours de philosophie positive كيف تنشأ المجتمعات بشكل متماشي مع القانون الطبيعي. وتتم مراحل التطور الثلاثة التى ذكرها (المرحلة اللاهوتية – العسكرية، والميتافيزيقية – الانتقالية، والعملية – الصناعية) والتى سيلي ذكرها بشيء من التفصيل لاحقا، وفقا لقانون التطور الاجتماعى. فضلا عن ذلك، فإنه يدافع عن الطريقة التاريخية فى دراسة العلوم الاجتماعية بناء على الطرق الإمبريقية [٣].

وقد تأثر كونت بفيزياء نيوتن، واستمد منها فلسفته الوضعية التى حاول أن يرسى علم الاجتماع على أساسها، ذلك أن إصرار نيوتن على ضرورة تأييد التجربة لأى فرضية للتأكد من صدقها وصحتها، جعله قريبا من الوضعيين الذين كثيرا ما عبروا عن انتمائه إليهم، بل "إن أوجست كونت كان يتخذ من قانون الجاذبية الذى قال به نيوتن، نموذجا لما يجب أن يكون عليه التفكير الوضعي.

وعلى الرغم من أن كونت كان يرفض تحديد فروع علم الاجتماع بشكل مفصل، فقد كان يرى أن علم الاجتماع ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما: الاستاتيكا الاجتماعية Social Statics والديناميكا الاجتماعية Social Dynamics، وكان يعالج موضوعات العلم على هذا الأساس، ويمثل هذان المفهومات تقسيماً أساسياً لموضوع علم الاجتماع مازال يبدو فى صور ومظاهر عديدة متباينة على امتداد تاريخ هذا العلم وحتى يومنا هذا. وتمثل الوحدات الرئيسية للتحليل السوسيولوجي فى القسم الأول النظم الأساسية أو الوحدات التنظيمية المركبة للمجتمع، كالاقتصاد أو الأسرة أو السياسة. ويفهم علم الاجتماع فى هذه الحالة على أنه دراسة العلاقات المتبادلة بين هذه النظم، ويقول كونت فى هذا الصدد: "يتمثل الجانب الإستاتيكى لعلم الاجتماع فى دراسة قوانين الفعل ورد الفعل التى تخضع لها مختلف أجزاء النسق الاجتماعي".

ويستطرد كونت قائلاً: «إن أجزاء المجتمع لا يمكن أن تفهم منفصلة عن بعضها كما لو كان لكل منها وجود مستقل. وعلينا بدلاً من هذا أن ننظر

إليها على اعتبار أنه تربط بينها علاقة متبادلة. وأنها تكون كياناً كلياً، يفرض علينا أن نتناولها فى علاقاتها ببعضها البعض ». وقد وصف كونت مبدأ " التفاعل الاجتماعى الشامل " هذا بأنه « الفكرة الرئيسية فى اتجاهه برمته ».

وأطلق كونت على القسم التالى لعلم الاجتماع اسم الديناميكا الاجتماعية، فإذا كانت الاستاتيكا هى دراسة كيفية تداخل أجزاء المجتمع وتفاعلها مع بعضها البعض فإن الديناميكا يجب – فى رأيه – أن تركز على مجتمعات كاملة، وتتخذها وحدة للتحليل السوسيولوجى. والهدف من ذلك أن توضح كيف تطورت هذه المجتمعات وتغيرت عبر الزمن. ويقول كونت فى هذا الصدد « يجب أن نتذكر أن قوانين الديناميكا الاجتماعية تبدو أكثر إيضاحاً عندما ننظر إليها فى ضوء مجتمعات كبيرة ». ويبدو أن كونت كان يعتقد أنه قد استطاع بذلك حل مشكلة التغير والتطور نهائياً. فقد كان مقتنعاً أن جميع المجتمعات قد مرت ببعض مراحل التطور المحددة. وأنها كانت تتقدم باستمرار نحو مزيد من الكمال، ولا تجد هذه الأفكار كثيراً من المؤيدين فى يومنا هذا. وأقل منهم من يوافقون على أن المراحل التى حددها كونت هى بالفعل تلك المراحل التى مرت بها كافة المجتمعات، أو يتوقع أن تمر بها، ولكن الذى يهمنا هنا على أى حال أن كونت كان يعتبر أن الدراسة المقارنة للمجتمعات بوصفها كيانات كلية تمثل موضوعاً رئيسياً من موضوعات التحليل السوسيولوجى (٤).

والمجتمع الإنسانى – كما أعلن كونت – ظاهرة بالغة التعقيد ويستحيل دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية دون قيام تخصص. ولكن يبدو أن التوصل إلى تقسيم مرض لموضوع الدراسة فى شئون المجتمع الإنسانى أكثر

صعوبة منه فى دراسة العالم الطبيعى. ويرتكز تقسيم العمل حالياً بين العلوم الاجتماعية على بعض السمات التقليدية التى يمكن إدراكها بسهولة، كالنظم السياسية، والاقتصادية، والدينية، والأسرية، غير أن قدوم علم الاجتماع كان يعنى ضمناً تحدياً لهذا التقسيم التقليدى، ولكنه لم يتم مع ذلك داخل علم الاجتماع نفسه إلى حد ما. وعلى أية حال فلقد تطلب التعاون بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة قيام تخصص فى علم الاجتماع وفقاً لهذه الأسس. ويبدو أن هذا التصنيف القائم على أساس عناصر البناء الاجتماعي هو أفضل أساليب التصنيف جميعاً[٥]. وسوف نقوم هنا بعرض منهج أوجست كونت بالتفصيل باعتباره مؤسس علم الاجتماع وهو الذى أطلق عليه هذا الاسم.

أ) اتجاهه الفكرى

ارتبط اسم كونت ارتباطاً وثيقاً بعلم الاجتماع بوصفه علماً ينهض على أسس منهجية جديدة، ويهدف فى نفس الوقت إلى تحقيق غايات ومثل أخلاقية واجتماعية، ويجد فى نفسه القدرة على إحداث التوازن الاجتماعى المطلوب والإصلاح الأخلاقى الذى سيعيد للمجتمع الفرنسى وحدته وتماسكه. ولقد استطاع كونت من خلال الاتجاه الفكرى الذى يميز به، وارتبط بنشأته كمفكر اجتماعى، وفيلسوف، أن يصوغ نسقاً من المعرفة يتميز بالإحكام المنطقى، كما أن عمله – أكثر من أى عمل آخر – يمكن وصفه بأنه " عمل تأليفى " من الدرجة الأولى.

والواقع أن النشأة العلمية لكونت ساعدته كثيراً فى تكوين الإطار المعرفى الذى استندت إليه تحليلاته للظواهر الاجتماعية والأخلاقية. حيث روعته الفوضى التى ترتبت على انهيار النظام الاجتماعى فى أعقاب الثورة الفرنسية، ومن ثم كان اهتمامه الرئيسى بإعادة بناء النظام العام على أساس من الاتساق والاجتماع والتوازن والانسجام. ثم وجد أنه ليس ثمة علم يستطيع أن يتولى هذه المهمة، وإنما يتعين إعادة ناء سلسلة العلوم، على نحو يصل بنا فى نهاية الأمر إلى صياغة علم جديد يستطيع أن يتوصل إلى القوانين الاجتماعية التى يمكن فى ضوئها تحقيق هذه الأهداف الإصلاحية[٦].

ويمكن القول بصفة عامة بأن ارتباط كونت بـ "سان سيمون" Saint Simon، حينما عمل سكرتيراً خاصاً له قد طور عنده الرغبات الإصلاحية. فقد كان سان سيمون – بنزعته الاشتراكية الإنسانية – يعتقد أن التقدم الاجتماعى لابد وأن يتحقق. ويبدو أن كونت شارك سان سيمون أفكاره هذه، خاصة ما تعلق منها بضرورة إعادة تنظيم المجتمع، والبحث عن العلم الوضعى الذى سوف تكون مهمته كشف القوانين الاجتماعية التى تحكم تقدم العقل الإنسانى.

واتصل كونت أيضاً بالفكر الفلسفى السائد فى عصره، فاعتمد على الأفكار المعرفية التى طورها "هيوم" Hume و"كانط" Kant فى صياغة تصوره عن العلوم الوضعية. والجدير بالذكر أن الدائرة المعرفية التى اعتمد عليها كونت فى صياغة تصوراته كانت واسعة إلى حد كبير، إذ اشتملت على كل العلوم والمعارف السائدة، حتى أنه يمكن القول أن علم الاجتماع الذى دعا إليه

كونت كان نتاجاً لعمل تركيبي من الدرجة الأولى، استطاع من خلاله كونت أن يربط بين كتابات أرسطو، ومونتيسكيو وكوندرسيه بطريقة مبدعة ومبتكرة. واهتم بإسهامات فلاسفة التاريخ من أمثال فيكو ، وكانط و"هيجل" Hegel و"تيرجوت" Turgot. ووجد كونت فى أعمال بعض رجال الاقتصاد من أمثال "آدم سميث" Smith و"آدم فيرجسون" Fergnson بعض الأفكار العامة التى تفسر التغيرات التاريخية التى تشهدها النظم الاجتماعية. وحينما اتجه كونت نحو صياغة الجوانب الطقوسية Ritualistic لمعتقده الجديد، استعان بأفكار "دى ميستر" De Maistre.

وهكذا، كان اتجاهه الفكرى تركيبى، بمعنى أنه ينهض على ثلاثة مقومات أساسية هى: صياغة نسق موحد للمعرفة يتضمن المناهج القادرة على تحصيل المعرفة وتطورها ولنموها، وضع الأسس المنهجية للتحليل الاجتماعى والعمل الاجتماعى، وأخيراً وضع الأسس المنهجية للإصلاحات الدينية والأخلاقية [٧].

ويمكن اعتبار كونت من أوائل العلماء الذين وضعوا مفهوم علم الاجتماع concept of sociology . ففى تنظيره لفلسفته الوضعية philosophie positive في الفترة (١٨٣٠-١٨٤٢)، أكد كونت على ضرورة التمايز والتخصص الأكاديمي. وفى الوقت ذاته، أدرك خطورة فصل وانعزالية المعرفة. يؤكد ذلك مقولته: "من الواضح أن هذا الانقسام فى الأنواع المختلفة من البحث بين الجماعات المتباينة من الباحثين قد أدى لحدوث مستوى من التطور فى المعرفة فى وقتنا الراهن. ومع ذلك فإن هذا الفصل

والانقسام يعنى أنه لم يعد بعد من الممكن للباحث الحديث أن ينخرط فى كل المجالات المعرفية فى وقت واحد، ذلك المستوي والشكل من الانخراط الذي كان أمراً يسيراً وطبيعياً فيما مضى". وقد أشار كونت الى أن توسع القاعدة المعرفية يسير جنباً إلى جنب مع زيادة التمايز وتقسيم العمل. ومع ذلك، فإن تلك العملية لها أيضاً وجهها السلبي؛ فحتى مع الاعتراف بالنتائج العظيمة التى تحققت بسبب تقسيم العمل، والزعم بأن ذلك هو الأساس الصحيح للتنظيم العام للمجتمع الأكاديمي، يبقى من المستحيل عدم التأثر بتقسيم العمل فى ظل التخصص المفرط فى الأفكار التى يتمسك بها كل فرد. لذلك، فيجب علينا أن نكون حريصين لئلا يفقد العقل البشري طريقه في النهاية في ظل تراكم التفاصيل (٨).

ويعتبر كتاب "دروس فى الفلسفة الوضعية" أهم أعمال كونت، وقد خرج هذا الكتاب فى ست مجلدات. غير أن عنوان هذا الكتاب لا يجب أن يخدعنا عن الحقيقة التى مؤداها أنه يمثل ثورة على الفلسفة التقليدية، فهو يتضمن توجيهاً محدداً نحو الواقع، ذلك أن الوضعية إنما تعنى القدرة على فهم الحياة بعيداً عن التأمل العقيم، وعلى أساس من المعرفة اليقينية المنظمة، وليس اليقين هنا معناه أن المعرة مطلقة، وإنما هناك نظرة نسبية، وهذه هى الروح البناءة التى تنطوى عليها الوضعية، أما الروح الميتافيزيقية فهى غير قادرة على استيعاب هذه الفكرى. لقد أراد أوجيست كونت من كتابه هذا أن يكون متضمناً للخطة العامة التى سيقام علم الاجتماع فى ضوءها، وهذه الخطة الفلسفية الوضعية بكل ما تنطوى عليه من مقولات جديدة (٩).

والفلسفة الوضعية التى وصفها كونت، بالرغم من أنها صارت مرتبطة أكثر بالعلوم الإنسانية: كالجغرافيا والفلسفة – وعلم الاجتماع، إلا أنه كان محور اهتمام العلوم الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات فى القرن التاسع عشر. وتتضمن الفلسفة الوضعية رفضا للتأمل أو التصور، وتؤكد بدلا من ذلك على الحقائق والمعرفة العلمية.

ويمكن النظر لنظرية كونت – بدرجة ما – على أنها رد فعل للثورة الفرنسية وما يدعى بفلسفة التنويرPhilosophy of the Enlightenment، حيث أنه آمن أن الفلاسفة الذين بالغوا فى التأكيد على دور الاستدلال فى الشئون الإنسانية، كانوا انتقادين لدرجة هدفت لتدمير المؤسسات التقليدية القديمة، خاصة العقيدة. لذلك، فقط قدم فلسفته الوضعية كمقابل للرؤى السلبية التى شابت فكر التنوير. وفى عام ١٨٢٢، كرس كونت لمصطلح "الفيزياء الاجتماعية" Social physics، التى أسماها فيما بعد "علم الاجتماع" Sociology، وقد جاءت الوضعية كجزء مكملا لتقليد عصر التنوير، حيث كانت العلوم والحقائق يقابلها الميتافيزيقا والتأملات، ولم يعد الإيمان والوحي بالمصادر المقبولة للمعرفة. وكان ذلك ترسيخا للتوجه العلماني الذي بدأ فى الغرب قبل ذلك، ثم استمر بعده في محاولات مستمرة لنزع القدسية من أى معتقد والإيمان بالمادة وحدها. وهو ما اتضح بعد ذلك في مادية ماركس التي كان عمادها الإيمان بالمادة وحدها، وما زامنها من طرح كتاب دارون عن أصل الأنواع، الذي رفض فيه إرجاع الخلق للخالق، بل عزاها إلى محض الصدفة في ظل الطبيعة الجدلية للطبيعة [١٠].

وقد جاءت نظرية كونت الوضعية (١٨٤٢-٣٠) لتجعل من علم الاجتماع نهجا علميا قائما بذاته. فقد انتقد فيها ما أسماه سلبية فلسفة القرن الثامن عشر التى دعا لها الفلاسفة الداعين للفردية أمثال "كانط" Kant و "هوم" Hume حيث كان يرى أن هؤلاء الفلاسفة خربوا بدلا من أن يضعوا أسسا للنظام الاجتماعي وعلم الاجتماع. فالهدف الرئيس للسياسات العملية – كما يرى كونت – يتمثل فى تجنب الثورات العنيفة التى تنبع من المعوقات التى تقف فى وجه التقدم الحضاري.

وكان كونت يرى أن العلم الحقيقى هو الذى يسعى لتأصيل نظاما فكريا يكون قاعدة تنطلق منها كافة النظم الأخرى. وقد قام بتعريف علم الاجتماع كعلم قائم على نظرية قانون المراحل الثلاثة والتصنيف الهرمى للعلوم. وكان يرى أن الفكر الإنساني يمر عبر ثلاثة مراحل منفصلة هي: المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة الوضعية [١١].

ب) المراحل الثلاث للتطور العقلى والاجتماعى :

يذهب كونت إلى أن هناك ثلاثة جوانب رئيسة هى: مشاعرنا وتتضمن الدوافع والعواطف التى تكمن خلف النشاط الذى نمارسه، وأفكارنا، وهى تخدم المشاعر، ولكنها تعيننا على التحكم فيها، وأخيراً أفعالنا، تلك التى تتم فى ضوء المشاعر والأفكار معاً. ومثل هذه الجوانب توجد أيضاً بالنسبة لحياتنا الاجتماعية وسلوكنا الاجتماعى مع الآخرين. ذلك أن استمرار المجتمع ووجوده ينبغى أن ينهض على تنظيم محدد للنظم والمؤسسات، والمعرفة، والقيم والمعتقدات، وهى جميعاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمشاعر، والأفكار، والأنشطة

التى يمارسها الأفراد أعضاء المجتمع، ذلك أن المجتمع فى نهاية الأمر هو نسق من أنماط السلوك المنظمة والمشتركة بين الأفراد.

والمتبع لتاريخ الإنسانية – من منظور كونت – يستطيع أن يقف على الكيفية التى شكلت من خلال العلاقة بين هذه الجوانب المختلفة، على نحو يمكن معه تمييز ثلاثة مراحل للتطور العقلي والاجتماعي هي:

١- المرحلة اللاهوتية Theological Stage

وتتميز هذه المرحلة بأن مشاعر الإنسان وخياله تتصل أساساً بالبحث عن طبيعة الأشياء وأسبابها وغاياتها. وتتخذ تفسيرات الإنسان للأشياء والظواهر شكل الأساطير المتعلقة بالأرواح والكائنات فوق الطبيعية. وقد حدد كونت ثلاثة مستويات للتطور العقلى داخل هذه المرحلة. المستوى الأول هو التفسير الحيوى، حينما ينسب الإنسان لكل شئ فى الطبيعة حياة خاصة به تشبه الإنسانية، والتعددية، أى محاولة تفسير الظواهر بالرجوع إلى الآلهة والأرواح، والوجدانية، أى الاعتماد فى التفسير على إله واحد هو مصدر القوة والعقل. ويلاحظ أن طبيعة التنظيم الاجتماعى السائد خلال المرحلة اللاهوتية أنه تنظيم عسكرى، فالقوة العسكرية هى التى تحقق الاستقرار الاجتماعى، غير أن كونت يعتقد أيضاً أن الخيال والشعور هما أساس الخبرة الإنسانية خلال هذه المرحلة، فهما يدفعان الإنسان إلى التحرك نحو البحث عن الحقائق، وفى وقت لم يتم فيه تراكم للمعرفة الإنسانية. وهذا البحث الدائب هو الذى يوصل الإنسان إلى الحقبة الأخيرة من هذه المرحلة وهى حقبة الوحدانية، ويعنى ذلك بداية ظهور الفكر

التحليلى والنقدى الذى يؤدى إلى المرحلة الثانية الانتقالية فى سلسلة التطور العقلى والاجتماعى.

٢- المرحلة الميتافيزيقية Metaphysical Stage

وتمتاز هذه المرحلة بالتأمل العقلى، والبحث عن المعانى والدلالات، والكشف عن الجواهر، والتفكير فى ضوء المثاليات والأشكال، بل أن الإنسان يسيطر عليه تصور معين "للحقيقة المطلقة". أما التغيرات النظامية التى تشهدها هذه المرحلة فهى نمو القدرة الدفاعية واتساع نطاق القانون بحيث يمهد ذلك الأساس للحياة المدنية التعاونية.

ومع ذلك، فإن تطور الإنسانية لم يقف عند هاتين المرحلتين، فلم يتمكنا فى الحقيقة من مواجهة المشكلات المتراكمة للحياة الإنسانية. إذ كلما أراد المجتمع الإنسانى تعقيداً وتركيباً، خاصة بعد الثورة الصناعية، اتضح عدم ملائمة المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية. إن حاجة الإنسان إلى أساس سليم للمعرفة، والفنون، والحياة الاقتصادية والسياسية قد دفعته إلى تخطى المرحلتين السابقتين، والدخول إلى عصر المرحلة الثالثة التى أطلق عليها المرحلة الوضعية.

٣- المرحلة الوضعية Positive or Scientific Stage

فى هذه المرحلة الأخيرة يتجه الإنسان نحو رفض تلك الافتراضات اللاهوتية والميتافيزيقية التى تفسر الظواهر إما على أساس الآلهة أو الماهيات. فالإنسان – من وجهة نظره – عليه أن يبحث عن الأسباب الحقيقية لوقوع

الأحداث والظواهر، التى يمكن أن تنتهى به إلى تفسيرات تستطيع أن تصمد أمام الاختبارات الواقعية. وهذه الأسباب يمكن الكشف عنها عن طريق القوانين الطبيعية التى تفسر الارتباط القائم بين الظواهر ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم الوضعى المتماسك منطقياً، والقائم على أساس من الملاحظة والتجربة. ويعتقد كونت أن هذه المراحل الثلاث تمثل قانوناً عاماً ينطبق على الإنسانية بأسرها[١٢].

٣- هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣)

يذكر هربرت سبنسر فى سيرته الذاتية، أنه نشأ وهو مولعا بفكرة السببية Causation. فقد علمه أبوه أن أى شيء يحدث، إنما له سبب مؤدى إليه يمكن استيعابه، وأن هناك سبب طبيعي وراء كل ما يحدث. وفى مقال له يتحدث فيه عن مراحل تطوره الفكري، يؤكد سبنسر أن الأفكار ذات الأسباب الطبيعية كانت دائما مثار اهتمام لديه وتأثير عليه. وعندما وصل عمر السابعة عشر، كانت فكرة السببية الطبيعية Natural Causation قد باتت مهيمنة على تفكيره.

والسببية – كما يراها سبنسر – أكثر عمقا من التطور الذي تدل عليه بشكل منطقى. فالقانون الطبيعي Natural Law ذاته يعنى عملية اتساق العلاقات بين الظواهر. وهذا الاتساق ينجم عن القوانين السببية. وتنطبق السببية – وفقا لسبنسر – على كل مشاهد الوجود، بما فى ذلك الفكر والفعل الإنساني والظواهر الطبيعية. فإن كان فرع من العلم [كعلم الاجتماع على سبيل المثال] لا يبدوا أنه محكوم بالقوانين، فلا يعنى ذلك أنه لا يمكن اختزاله فى القوانين، بل

يعنى بالأحرى أن قوانينه لازالت مستعصية على وسائل التحليل التى بين أيدينا(١٣).

ويرى سبنسر أن الفلسفة تمثل "المعرفة الموحدة كلية". ومن خلال اشتقاق المبادئ من العموميات الأعلى، يحدث تكامل للمعرفة الموحدة جزئيا فى العلوم المختلفة (١٤).

وقد وظف سبنسر نظرية التطور الاجتماعي Social Evolutionism لدعم آرائه عن الفردية Individualism وإطلاق الحريات laissez faire الاقتصادية وإبطال قوانين الفقراء poor laws والتضييق العام لأغلب التدخلات الحكومية (١٥).

منظور التطور عند سبنسر

سعى سبنسر – مثل سابقه "هيجل" Hegel – فى وضع بنية اجتماعية تطورية فلسفية متكاملة. لكنه – على النقيض من هيجل كان ينتهج مدخلا قائما على المدرسة الامبريقية (التجريبية) الانجليزية British Empiricism وليس المثالية الألمانيةGerman Idealism، حيث كان توجهه الفكري قريبا جدا من البرجماتية الواقعيةRealistic Pragmatic المميزة للتوجه الأمريكي. ويرى سبنسر أن المجتمعات تبدأ بأشكال بسيطة جدا من التنظيم، ثم تتقدم نحو مرحلة المجتمعات مزدوجة التركيب، وفى النهاية تسير نحو مرحلة شكل ثلاثي التركيب للتنظيم الاجتماعي. والمقصد الرئيس لسبنسر من نظريته التطورية هو شرح

التغير الذي يطرأ أثناء التحول من النسق المتجانس إلى النسق المتغاير للبنية الاجتماعية [١٦].

ويمثل مؤلفه "أسس علم الاجتماع" [الواقع فى ثلاثة مجلدات، والمنشور عام ١٨٧٧] أول دراسة منهجية شاملة كرسها صاحبها صراحة لاستعراض موضوعات التحليل السوسيولوجى. وقد كان سبنسر أكثر دقة من كونت بكثير فى تحديد الموضوعات أو الميادين الخاصة التى كان يرى أنه يتحتم على علم الاجتماع أن يهتم بها. وهكذا كتب فى المجلد الأول من كتابه أسس علم الاجتماع يقول: «يتعين على علم الاجتماع أن يصف كيفية ظهور الأجيال المتتابعة من الوحدات المدروسة، ونموها وإعدادها للتعاون. ولذلك يأتى موضوع تطور الأسرة فى المقام الأول... ثم يتعين على علم الاجتماع بعد ذلك أن يصف ويفسر نشأة وتطور التنظيم السياسى، الذى ينظم شئون المجتمع التى تنسق بين أفعال الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع.. والتى تفرض عليهم ضوابط معينة فى بعض معاملاتهم مع بعضهم البعض.. كما يتعين عليه بالمثل أن يصف تطور الأبنية الكنسية ووظائفها... ونسق الضوابط الذى ينظم الأفعال الصغيرة.. كما يجب أن يدرس المراحل التى مر بها القطاع الصناعى فى المجتمع.. وكذلك نمو الأبنية التنظيمية التى استطاع ذلك القطاع الصناعى أن يطورها فى داخله» [١٧].

وهكذا يتضح أن موضوع علم الاجتماع كما حدده سبنسر يتضمن عناصر مألوفة لنا تماماً. وربما كان علينا أن نترجم هنا أو هناك مصطلحاً معيناً من اللغة التى كان يستخدمها سبنسر إلى لغتنا المعاصرة. فمن الواضح مثلاً أنه

عندما يتكلم عن "نسق الضوابط" إنما يقصد الموضوع الذى نطلق عليه فى علم الاجتماع المعاصر اسم "الضبط الاجتماعى". وليست هناك أى صعوبة فى أن نتبين الصلة التى تربط موضوع علم الاجتماع كما يحدده علماء الاجتماع المعاصرون بالخطوط العريضة التى حددها سبنسر. فإذا تتبعنا ترتيب الموضوعات فى العبارة التى اقتبسناها من سبنسر، وجدنا أن ميادين علم الاجتماع عنده هى : الأسرة، السياسة، الدين، الضبط الاجتماعى، الصناعة أو العمل. وقد ذكر سبنسر فضلاً عن هذا صراحة الدراسة السوسيولوجية للاتحادات والمجتمعات المحلية وتقسيم العمل، والتباين، ودراسة الفن والجماليات. وتدلنا الدراسة غير المتحيزة لقائمة الموضوعات التى أوردها سبنسر فى كتابه "الأسس" فى ضوء الدراسات المعاصرة التى سنعرض لها فى الفصول التالية، تدلنا على أن إطار الموضوعات التى يتناولها علم الاجتماع قد ظل مستقراً بشكل ملحوظ على مدى فترة طويلة من الزمن.

ولكن من المؤكد أن سبنسر لم يكن ليوافق على اقتصار علم الاجتماع على عدد من النظم كالأسرة أو العمليات كالضبط الاجتماعي. فقد أكد على التزام علم الاجتماع بدراسة علاقة التفاعل بين مختلف عناصر المجتمع. وبيان كيفية تأثير الأجزاء على الكيان الكلى، وتأثره بها هو الآخر. وقد لفت نظرنا إلى طائفة من الأمثلة التى توضح هذه " الاثار المتبادلة " نذكر منها آثار المعايير الجنسية على الحياة الأسرية. والعلاقات بين النظم السياسية وغيرها من أشكال السلوك المنظم لحياة الناس كالدين والشعائر. كما أقترح إجراء دراسة

مناظرة لتنظيم السلك الكهنوتي وغيره من صور التدرج للكشف عن كيفية " ارتباط التغيرات البنائية التى تحدث فيه بالتغيرات البنائية التى تحدث فيها".

كذلك ألقى سبنسر على علم الاجتماع عبئاً آخر، وهو اعتبار المجتمع ككل وحدة التحليل بالنسبة لرجل الاجتماع. وكان يؤكد أنه على الرغم من أن أجزاء المجتمع تمثل وحدات منفصلة متميزة إلا أنها ليست موجودة فى مواقعها هكذا عشوائياً، إذ ترتبط بين هذه الأجزاء علاقة دائمة إلى حد ما، ومثل هذه الحقيقة تجعل المجتمع – بوصفه هذا – كياناً كليا له مغزى، يمثل موضوعات للبحث العلمى، وعلى هذا الأساس كان سبنسر يرى أن على علم الاجتماع أن يقارن المجتمعات على اختلاف أنواعها والمجتمعات على اختلاف مراحل تطورها. وأكد أنه يتعين علينا لكى نلم بأسس علم الاجتماع بأن نتناول ظواهر البناء والوظيفة كما تبدو فى المجتمعات بصفة عامة، منفصلة قدر الإمكان عن الظواهر الخاصة التى ترجع إلى ظروف خاصة. وهكذا نرى أن التقسيم الرئيسى لاهتمامات البحث السوسيولوجى كما حدده كونت يبدو واضحاً كذلك فى تفكير سبنسر [١٨].

ومن وجهة نظر علم الاجتماع الحديث، فإن الإسهام الذى قدمه سبنسر للفكر السوسيولوجى يتمثل فى تأكيده لأهمية البناء الاجتماعى وما يتضمنه من نظم اجتماعية، أى الأجهزة المتخصصة التى يتضمنها المجتمع بوصفه كائناً فوق عضوى. ولقد ميز سبنسر بين النظم المدعمة أو المحافظة كالزواج والقرابة، والنظم الاقتصادية، وأخيراً النظم التى تتولى تحديد القواعد وصيانتها

كالدين والسياسة. أما الاجتماعى – فى نظره – فهو ضرب من التوازن يتحقق من خلال الوظائف المتبادلة التى تؤديها النظم الاجتماعية المختلفة [١٩].

٣- إميل دوركايم Durkheim (١٨٥٨-١٩١٧)

لم يظهر علم الاجتماع فى شكله الراهن حتى السنوات الأولى من القرن العشرين على يد دوركايم فى فرنسا. فعلى من النقيض من كارل ماركس، لم يكن اهتمام دوركايم بالبحث الاجتماعي مجرد صورة أخرى للتحليلات الاقتصادية والسياسية، بل كان المجتمع موضوعا مستقلا؛ له مداخله الخاصة وطرائقه المنهجية المستقلة . لذلك فقد كان مهتما بتمييز هذا العلم الناشئ عن علم النفس من خلال افتراضه أن الظواهر النفسية أيا كانت ترجع فى الأساس إلى أصل اجتماعي . لذلك فقد عزم على وضع أوراق اعتماد هذا العلم الجديد من منطلق ادعاء أن الوقائع الاجتماعية عرضه للبحث والتحقيق من خلال المنهج العلمى .

وقد قام دوركايم بتأليف العديد من الكتب الهامة التى وضع فيها أسس علم الاجتماع، وقدم العديد من طرائق الاستقصاء التى لازالت على أهميتها حتى اليوم. وفى كتابه الأول "تقسيم العمل فى المجتمع" Division of Labor in Society، قدم نظرية التغير الاجتماعي Theory of Social Change، حيث افترض أن المجتمع قبل الصناعي لم يكن ينتشر به تقسيم العمل، وبالتالى كانت هوية الفرد متضمنة في هوية الجماعة وتابعة لها. ومع تطور المدن، زاد عدد السكان وصاحب ذلك زيادة متزامنة فيما يسمي بالكثافة الأخلاقية Moral Density. وأدى تقسيم العمل للتوسع فى مهن فردية صارت أكثر تخصصا

(لاسيما مع حقبة الثورة الصناعية). وكان من نتاج ذلك، خلق مجتمع يقوم على الاستقلالية والاختلاف أكثر من التشابه، مما عنى أن الهوة الفردية – ومفهوم الفردية – بدآ فى الظهور كموضوع يستأهل التحليل [٢٠].

وهاتين المرحلتين لتطور النظام الاجتماعي؛ من التضامن الميكانيكى Mechanical Solidarity القائم على التشابه فيما قبل تقسيم العمل قبل ظهور المجتمع الصناعي وتطور المدن، إلى التضامن العضوي Organic Solidarity القائم على الاختلاف والتمايز وذلك مع حقبة الثورة الصناعية ونمو المدن وتقسيم العمل. هاتين المرحلتين كانتا قطبين فى سلسلة مستمرة ومتواصلة، حيث أن المجتمعات فى تلك الفترة – كما رآها دوركايم – كانت فى مرحلة انتقالية يغلب عليها الطابع الديناميكي. وكان معنى ذلك أنه فى حين أوشك التضامن الاجتماعى المميز للمجتمع قبل الصناعي على الاختفاء، كان النظام الجديد القائم على الاستقلالية الفردية لازال فى مرحلة النشوء .

وقدم دوركايم بعد كتابه الأول، مقالا عن الأسلوب العلمى تحت اسم "قواعد الطريقة المنهجية لعلم الاجتماع" The Rules of Sociological Method، حاول فيه تقديم أوراق الاعتماد البحثية لهذا الفرع العلمي الجديد. وفى كتابه الثالث – الذى كان له أهمية خاصة للباحثين فى علم الاجتماع الطبى– قام بتطبيق نظريته عن المجتمع وطريقته المنهجية على مشكلة الانتحار. حيث تعد تلك الدراسة أول عمل بحثي كبير فى علم الاجتماع الطبى. وقد عرض دوركايم فى هذا الكتاب – انطلاقا من نظريته عن تقسيم العمل – أشكال مختلفة للانتحار تعتمد على درجة تكامل الفرد مع المجتمع، فمن ناحية

قد ينتحر الشخص مضحيا بنفسه فى سبيل الجماعة، ومن الناحية الأخرى قد يكون منعزلا عن المجتمع ويأتي انتحاره لأسباب شخصية (٢١).

ولم يعرض دوركايم تصوره لموضوع علم الاجتماع بنفس الدرجة من التفصيل التى عرض بها سبنسر. وإن كنا نستطيع أن نعيد صياغة رأيه من واقع الملاحظات التى جاءت فى كتابه قواعد المنهج فى علم الاجتماع، وفى عدد من كتاباته الأخرى. حيث أشار دور كايم كثيراً إلى ما كان يطلق عليه " الفروع الخاصة " لعلم الاجتماع، وكان يحبذ صراحة ازدهار هذه الفروع ونموها على نطاق واسع، وقال فى هذا أن علم الاجتماع لا يستطيع أن يصبح علماً " إلا إذا تخلى عن دعواه الأولى فى الدراسة الشاملة للواقع الاجتماعى برمته. وإلا إذا ميز بين مزيد من الأجزاء، والعناصر، والجوانب التى يمكن أن تتخذ موضوعات لمشكلات محددة ". وقد أيد فى استعراضه لمؤلفاته ومؤلفات زملائه من علماء الاجتماع فى فرنسا " طموحهم المشترك فى أن يبدءوا فى علم الاجتماع المرحلة التى أسماها كونت مرحلة التخصص". وقد قبل دوركايم فكرة أن علم الاجتماع يجب أن يختص بطائفة واسعة من النظم والعمليات الاجتماعية. وقد كتب على سبيل المثال يقول : " الواقع أن علم الاجتماع شأنه شأن كثير من العلوم الاجتماعية له من الفروع بقدر التنويعات الموجودة فى الظواهر الاجتماعية (٢٢).

فهو يرى، أنه حتى نضحي بالحقائق الملموسة وبالواقع الذي نحيا فيه، فلابد أن يتمتع المجتمع بقوة معنوية طاغية تفوق قوانا الذاتية الخاصة، قوة تستطيع دفعنا إلى هذا الاتجاه. وكان ذلك بالنسبة له هو الدافع وراء أهمية فهم

الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء واقعية ملموسة، عرضة لقوانين الطبيعة ومحفزة لإرادة الإنسان وقابلة للاكتشاف بالأسلوب العلمي من خلال سماتها وحدودها الخارجية. ويصف علماء الاجتماع ذلك على أنه أسلوباً منهجياً، صار بعد ذلك معياراً أساسياً فى أغلب النصوص التى قدمت لعلم الاجتماع. واللافت للانتباه، أن أعمال دوركايم كانت دائماً ذات مغزى أخلاقي وسياسى، أى أنه كان يهدف لبناء مفردات معيارية مقننة وأسلوب جديد فى الحديث عن الواجبات والالتزامات والمثل لتأخذ مكانها فى التعبير الديكارتي. وعلى شاكلة أفلاطون، كان دوركايم يشر إلى حالة عامة أكثر ملائمة لحاجات عصره [٢٣].

وقد أوضح دوركايم موقفه فى الإطار العام الذى حدده للأعداد من مجلة "الحولية الاجتماعية" التى كانت أول مجلة سوسيولوجية متخصصة. فقد قسم المجلة إلى سبعة أقسام يندرج تحت كل قسم رئيسى منها عدد من الأقسام الفرعية **وقد تضمن أحد الأعداد الممثلة الأقسام الرئيسية التالية :**

- علم الاجتماع العام، ويتضمن قسماً فرعياً عن الشخصية عند الفرد، وعند الجماعة.
- علم الاجتماع الدينى.
- علم الاجتماع القانونى والأخلاقى، **ويتضمن أقساماً فرعية عن :**

– التنظيم السياسى – التنظيم الاجتماعى – الزواج والأسرة

- علم الاجتماع الجنائى
- علم الاجتماع الاقتصادى، **ويتضمن أقساماً فرعية عن :**

– قياس القيمة – والجماعات المهنية

- الديموجرافيا، وتتضمن قسماً فرعياً عن المجتمعات الحضرية والريفية
- علم الاجتماع الجمالى

ومن الممكن الرجوع إلى هذا الإطار العام، الذي يعود إلى عام ١٨٩٦ إذا ما أردنا إلقاء نظرة عامة على الاجتماع المعاصر.

وعلى الرغم من أن دوركايم قد قدم صورة عامة للنظم والعمليات الاجتماعية التى يجب على علماء الاجتماع الاهتمام بها، إلا أنه أكد شأنه شأن كونت وسبنسر على أهمية تحليل العلاقات بين النظم وبعضها من ناحية وبينها وبين البيئة الموجودة فيها من ناحية أخرى. ويؤكد دوركايم أن من أبرز إسهامات علم الاجتماع الوعى بأن هناك علاقة وثيقة بين جميع الظواهر الاجتماعية المتباينة أشد التباين، والتى تمت دراستها حتى الآن.. وأنها توجد فى حالة الاعتماد الكامل. وكان يرى أن كل ظاهرة اجتماعية لابد وأن ترتبط ببيئة اجتماعية معينة، وبنمط محدد من أنماط المجتمعات، وكان يرى أن عدم مراعاة ذلك يعنى ترك الظواهر الاجتماعية كظواهر الدين والقانون والأفكار الأخلاقية، والاقتصاد "معلقة فى فراغ". وكان يتمسك بأننا لا يمكن أن نفهم هذه الظواهر "ما ندرسها فى علاقتها ببعضها البعض وفى علاقتها بالبيئة الاجتماعية التى تطورت فيها، والتى تعد هذه الظواهر تعبيراً عنها".

ولم يكن دوركايم أقل حرصاً من سبنسر على اعتبار المجتمعات وحدات هامة للتحليل السوسيولوجى. فكان يصف علم الاجتماع بأنه "علم دراسة المجتمعات". كما أكد أكثر من مرة على أهمية دراسة أنماط مختلفة من المجتمعات دراسة مقارنة. فقد كتب فى كتابه قواعد المنهج يقول : "إننا لا

نستطيع أن نفسر ظاهرة اجتماعية أياً كانت درجة تعقيدها إلا من خلال تتبع عملية التطور الكاملة التى مرت بها خلال التكوينات الاجتماعية المختلفة. فعلم الاجتماع المقارن ليس إذن مجرد فرع من فروع علم الاجتماع وإنما هو علم الاجتماع نفسه [٢٤].

وقد حدد دوركايم خصائص الظاهرة الاجتماعية على أنها تنشأ باجتماع الناس بعضهم ببعض، ولا تكون وليدة إرادة فردية، وتتميز بإلزام الأفراد وقهرهم على سلوك بعينه تغريهم به جزاءات وعقوبات يفرضها المجتمع ويحددها القانون. وهكذا نزع علم الاجتماع إلى الاستقلال عن الفلسفة، وصار علماً موضوعه الظواهر الاجتماعية من عادات وتقاليد ونظم سياسية ودينية واقتصادية ونحوها مما ينشأ عن حياة الأفراد مجتمعين فى زمن معين ومكان محدد. وأصبحت مهمة علم الاجتماع وصف هذه الظواهر كما هى موجودة بالفعل وتحليلها وردها إلى عللها والانتهاء إلى معرفة قوانينها بموضوعية يتوخى فيها الباحث إبعاد عواطفه وميوله وأهوائه ومصالحه، كما هو الحال فى دراسات العلوم الطبيعية. ومن هنا رأى أصحاب هذا العلم أن دراساته تقوم على الملاحظة والاستنتاج واستقراء الحقائق مع صياغة النتائج فى كميات عددية أو رموز رياضية ورسوم بيانية وقوانين إحصائية [٢٥].

٤- ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠)

كرس ماكس فيبر الجانب الأكبر من كتاباته فى علم الاجتماع لشرح وتفسير المنهج الخاص الذى نادى به، والذى أسماه منهج الفهم. لمناقشة التقلبات التى تطرأ على التمسك بالموضوعية والحياد فيما يتصل بإطلاق

الأحكام القيمية فى العلوم الاجتماعية، ومع ذلك فقد قدم ماكس فيبر تعريفاً عاماً لعلم الاجتماع الذى وصفه ذات مرة بأنه "تلك الكلمة البالغة الغموض". وعلم الاجتماع فى رأى فيبر "هو العلم الذى يحاول الوصول إلى فهم تفسيرى للفعل الاجتماعى من أجل التوصل إلى تفسير علمى لمجراه ولنتائجه". والعبارة الحاسمة فى هذا التعريف هي "الفعل الاجتماعي". فالواقع أن ماكس فيبر قد أعطى هذا المصطلح معنى واسعاً كل السعة، إذ ضمنه " كافة أنواع السلوك الإنسانى، عندما يخلع عليها الأفراد الفاعلون معنى ذاتياً، وتختلف أهميتها تبعاً لما يخلعونه عليه من هذا المعنى الذاتى". وقد يوحى هذا التعريف بأن فيبر كان يعتبر "الفعل الاجتماعي" أو " العلاقة الاجتماعية " هى الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع. ومع أن فيبر قد اقترح فعلاً نسقاً دقيقاً لتصنيف الأفعال الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية، إلا أنه لم يدرسها بصفتها هذه، فلم يؤسس علم الاجتماع عنده على مجموعة من الأحكام الوصفية عن مثل هذه الأفعال أو أنماط العلاقة الموجودة بينها، كما أنه لم يقدم أى تفسيرات مفصلة لمثل هذه الأنماط فقد ركز كل جهده أساساً على تحليل بعض النظم المشخصة الموجودة فعلاً. ومن بين الموضوعات التى كتب عنها كتابة مركزة : الدين وبعض جوانب الحياة الاقتصادية، كالنقود، وتقسيم العمل، والأحزاب السياسية وغيرها من أشكال التنظيم السياسى، والسلطة، والبيروقراطية وغيرها من أنواع التنظيمات ذات النطاق الواسع، والطبقة الاجتماعية والطبقة المغلقة، والمدينة، والموسيقى [٢٦].

ولا يكشف تعريف فيبر لعلم الاجتماع ولا قائمة الموضوعات التى كتب فيها بالقدر الواجب عن بعض السمات البارزة لعمله، وقد كتب البروفيسور

"راينهارد بندكس" Reinhard Bendix – أحدث من أرخ لفيبر – كتب عن دراسات فيبر الشهيرة عن الدين يقول: "أن الموضوعات الرئيسية الثلاثة كانت تدور حول الكشف عن أثر الأفكار الدينية على الأنشطة الاقتصادية، وتحليل العلاقة بين التدرج الاجتماعى والأفكار الدينية، وتحديد وتفسير السمات المميزة للحضارة الغربية". وسوف ندرك على الفور أن الموضوع الرئيسى الأول من هذه الموضوعات يمثل جانباً آخر من مفهوم علم الاجتماع باعتباره ينفرد بدراسة العلاقات المتبادلة بين مختلف أجزاء المجتمع. أما الموضوع الرئيسى الثالث والذى نعتبره إشارة جديدة إلى علم الاجتماع المقارن الذى يتخذ من المجتمعات وحدة للتحليل. والذى يبحث فى العوامل التى تفسر أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين المجتمعات على اختلاف الأماكن والعصور التى توجد فيها [٢٧].

وقد اهتم فيبر بدور الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ومن المعروف أن فيبر يمثل أحد أقطاب التوجه نحو التحليل السوسيولوجي اعتماداً على الوحدات الاجتماعية الكبرى ويرى فيبر أن الأخلاق الدينية المميزة للمجتمعات البروتستانتية تتضمن قيماً داعمة وميسرة لتطور ونمو الاقتصاد الرأسمالى، هذه الرؤية التى يجسدها النموذج أو الأسلوب الذى يتعامل مع النسق الاجتماعي ككل أو التحليل على مستوى النسق وليس على أجزاءه الفرعية، **وتتطلب عملية تأكيد القضية النظرية التى طرحها فيبر عن العلاقة بين الأخلاق البروتستانتية والرأسمالية نوعين من الشواهد الأساسية :**

يتعامل الأول مع المقارنة المتسقة بين النظم الاقتصادية للمجتمعات البروتستانتية وللمجتمعات غير الروتستانتية لنحدد أو لنجيب على السؤال المتعلق بالعلاقة بين الرأسمالية والعقيدة البروتستانتية.

ويدور الثانى حول التحليل والفحص للنظام الاقتصادى للمجتمعات التى تتبنى العقيدة البروتستانتية عبر فترة زمنية معينة لنحدد أو نجيب على السؤال المتعلق بمدى التطور فيه بعد تبنى هذه المجتمعات لهذه العقيدة. وقد قدم فيبر شواهد لكلا النوعين حيث قارن بين بعض الدول بناء على وضعها أو عقيدتها الدينية (٢٨).

ومن الجدير بالملاحظة أنه تم تأويل إسهامات البنائية الوظيفية فى أنها تدمج التقسيم التنظيمى للعمل مع كل من تنظيم القوة وبناء الثقة والمعنى لذا فإن ما سبق أن عبر عنه السوسيولوجيين فى المرحلة الكلاسيكية من احتمال وجود صراع أو توتر بين هذه المكونات أمر غير معترف به أو لا يمكن حدوثه وفق تفسير المدرسة البنائية الوظيفية وقد تدعم هذا الانطباع نظراً للحقيقة التى مؤداها أن تحليل المدرسة البنائية الوظيفية لجوانب أو أبعاد النظام الاجتماعى باستخدام مصطلحات النسق والتماسك والاستقرار للنظام الاجتماعى وفى ذلك إغفال أو إضفاء طابع سلبى على دور الأفراد والجماعات فى بناء مثل هذا النظام، وإنكار فى نفس الوقت للتوتر أو الصراع الذى قد يوجد بين التقسيم الاجتماعى للعمل وتنظيم القوة وبناء المعنى والثقة (٢٩).

٥- كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣)

كارل ماركس فيلسوف ألماني، سياسي، وصحفي ،ومنظّر اجتماعي. قام بتأليف العديد من المؤلفات، إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجليز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي. وقد شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجليز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية (الشيوعية المعاصرة). ولد بمدينة (ترير) في ولاية (رينانيا) الألمانية عام ١٨١٨م والتحق بجامعة بون عام ١٨٣٣ لدراسة القانون. وأظهر ماركس اهتماماً بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد لماركس أن يصبح محامياً. وقام ماركس بتقديم رسالة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٨٤٠ وحاز على شهادة الدكتوراه. من مؤلفاته: "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"(١٨٥٩) و "رأس المال" (١٨٦٧) [٣٠].

وقد أحدثت الفلسفة الماركسية ثورة فى العلم، ولكى ندرس هذه الفلسفة يتعين علينا أن نتذكر أن ماركس ولينين قد اعتمدا على بعض الفلسفات السابقة وعلى الانحياز الإيجابى للعلوم، خاصة دارون ونظريته عن أصل الأنواع. فالفلسفة الماركسية هى نتاج لظروف اقتصادية اجتماعية محددة كما أنها أيضاً نتاجاً لمتطلبات فلسفية وطبيعية معينة [٣١].

وقد ظهر الاتجاه الماركسي فى عام ١٨٤٠، وكان نتاجاً مباشراً لظروف اجتماعية معينة. لأن الرأسمالية قد تطورت وزاد التوجه نحو علمنة الحياة (في ضوء خلفية الصراعات بين العلم والكنيسة في أوروبا ومحاكمات

العلماء واتهامهم بالهرطقة)، فوجد ماركس وانجليز أن السبيل الوحيد لفض النزاع بين العلم والكنيسة هو رفض الدين من الأساس، فكانت فلسفته المادية وكان زعمه بأن الدين ما هو إلا مخدر لتخدير الشعوب.

موقف ماركس الأيديولوجي

أعلن كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) تحيزه الأيديولوجي بوضوح منذ البداية. كما أنه بدلاً من أن يحاول إخفاء الصلة بين موقفه الأيديولوجي وبين اتجاهه الفلسفي النظري، عمل على أن يؤكد هذه الصلة ويبرزها بشكل صريح. ولم تنفصل مجهودات ماركس السياسية عن مجهوداته العلمية النظرية، بل إنه كان هناك دائماً تلاحم بين الاثنين لدرجة أن تاريخه الشخصى – الذى يمكن اعتباره حتى عام ١٨٤٥ – أى حين كان فى السابعة والعشرين من عمره سلسلة من الحلقات فى تاريخ فرد أصبح منذ هذا الوقت لا ينفصل عن التاريخ العام للاشتراكية فى أوربا. فقد أصبح ماركس ثورياً محترفاً، يكتب ويحاضر ويتآمر من أجل تحقيق الثورة على النظام الرأسمالى التى كان يعتقد أنها آتية لا ريب فى ذلك.

وقد عبر ماركس عن اتجاهه الأيديولوجى منذ أن كان صبياً فى مرحلة المراهقة، فقد كتب مقالاً قصيراً عندما كان فى السنة النهائية بالمدرسة الثانوية عنوانه "تأملات شاب عن اختيار مهنته" عبر فيه عن مبدأ ظل يسترشد به طوال حياته السياسية والفكرية حيث قال: «إن المبدأ الذى يجب أن نسترشد به فى اختبارنا لمهنتنا يجب أن يكون رفاهية الإنسانية وكمال أنفسنا ولا يجب أن يتطرق إلى أذهاننا أن هاتين المصلحتين تتعارضان مع بعضهما البعض أو أن

إحداهما يمكن أن تقضى على الأخرى. فالواقع أن طبيعة الإنسان تمكنه من تحقيق كمال ذاته من خلال العمل على تحقيق كمال ورفاهية مجتمعه. والتاريخ يسمى أولئك الأشخاص الذين يعملون من أجل الإنسانية أعظم الرجال الذين اكتسبوا صفات النبل من خلال جهودهم فى سبيل الإنسانية» [٣٢].

وفى عام ١٨٤٣ كتب ماركس سلسلة من المقالات السياسية فى مجلة Rheinische Zeitung الألمانية عن الظروف الاجتماعية وتناول فى هذه المقالات وصف بؤس الفلاحين الذين يزرعون الكروم والمعاملة القاسية التى كان يلقاها الفقراء لسرقة بعض الأخشاب من الغابات التى كانوا يعتقدون أنها ملكية عامة لهم فيها بعض الحقوق، كما هاجم ماركس الحكومة الروسية التي وصفها بالرجعية فى مقالاته، مما أدى بإمبراطور روسيا فى ذلك الوقت إلى الاتصال بالسفير الروسى بخصوص ماركس، وكان من جراء ذلك إغلاق المجلة التى يكتب فيها ماركس، فهاجر إلى باريس حيث طردته الحكومة الفرنسية من فرنسا عام ١٨٥٤ بناء على شكوى الحكومة الروسية لمهاجمته لها فى سلسلة من مقالاته، فهاجر إلى بروكسل حيث اتصل بالمنظمات الاشتراكية وبخاصة الرابطة التربوية للعمال الألمان Educational Association of German Workers والعصبة الشيوعية The Communist League. وفى عام ١٨٤٧ كتب ماركس بناء على تكليف من هذه المنظمة وثيقة تشرح أهدافها ومعتقداتها، وهى التى عرفت باسم البيان الشيوعى "المانيفستو" Communist Manifesto وكانت أول جملة فى هذا البيان "أن

تاريخ كل المجتمعات هو تاريخ الصراع الطبقى" تمثل أهم الجوانب التى ميزت فكر كارل ماركس الذي كان يقوم على فكرة الصراع والطبيعة الجدلية.

وفى عام ١٨٤٨ اتجه ماركس إلى ألمانيا بعد قيام الثورة فيها، حيث رأس تحرير مجلة راديكالية جديدة تهاجم ما أسمته الرجعية والرأسمالية، وتدافع عن حقوق الطبقة العاملة. وبعد فشل الثورة، عاد إلى باريس ثم استقر به المقام فى لندن منذ عام ١٨٤٩ حتى نهاية حياته، حيث أصبح رئيساً للجمعية العمومية الدولية التى تكونت عام ١٨٦٣ وهى اتحاد دولى للعمال كان يهدف إلى وضع نهاية النظام الاقتصادى الرأسمالى واستبداله بنظام آخر يقوم على الملكية العامة. وخلال هذا النشاط السياسي، كان ماركس يعمل فى مؤلفاته التى تعكس هذا النشاط وتدعمه فى نفس الوقت.

وهكذا نرى أنه فى مقابل انحياز كونت ودوركايم وفيبر وباريتو للطبقة العليا (البرجوازية) وتسخيرهم نظرياتهم لتبرير النظام الرأسمالي والدفاع عن البرجوازية، انحاز كارل ماركس للطبقة العاملة وسخر نفسه ونظريته للدفاع عن هذه الطبقة ونقد ومهاجمة النظام الرأسمالى من أجل الإطاحة به وإحلال النظام الاشتراكى محله. ومثلما كانت نقطة انطلاق كونت لتحقيق هدفه هى رفض فلسفة التنوير النقدية والسلبية على اعتبار أنها حققت هدفها بقيام الثورة البرجوازية والنظام الرأسمالي الصناعي وتبنى بدلاً منها الفلسفة الوضعية الإيجابية التى كانت نقطة انطلاق ماركس من فلسفة التنوير النقدية السلبية ولكنه قام بتطويرها على أسس مادية أو لامثالية [٣٣].

وتتكون الماركسية من شقين متكاملين. المادية الجدلية Dialectical Materialism والمادية التاريخية Historical Materialism. والموضوع الأساسى للمادية الجدلية هو القضية الفلسفية الأساسية التى تدور حول علاقة الوعى بالوجود. وموقف الفلسفة الماركسية من هذه القضية محدد بوضوح. فهى تسلم بأن المادة والوجود أساس الوعي أو الفكر. فالوجود هو الأولى والوعي هو الثانوى. كما أنها تسلم بالأساس المادى للعالم وبإمكانية فهمه ومعرفته – كما أنها تدرس هذا العالم المادى بوصفه فى حالة حركة وتطور مستمرين على أساس جدلى أو ديالكتيكى وترفض أى معنى روحى أو دينى. وترى أنها تكشف عن أكثر القوانين التى تحكم تطور العالم المادى عمومية؛ أى تلك القوانين التى تحكم كافة مجالات الواقع. فكل الموضوعات الحية وكذلك ظاهرات الحياة الاجتماعية والوعى – من هذا المنظور المادى البحت – تتطور على أساس قوانين الجدل الأساسية ووحدة صراع الأضداد، وقانون التحول الكمى إلى تغير كيفى وقانون النفى. كما تدرس المادية الجدلية أيضاً القوانين التى تحكم المعرفة Cognition بوصفها عملية والتى تعكس قوانين العالم الموضوعى.

أما المادية التاريخية فتعنى بالقوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع وتكشف الطبيعة المادية الجدلية لتطور الحياة الاجتماعية. وهى عبارة عن تطبيق القوانين العامة للمادية الجدلية على نوع معين من ظاهرات الكون وهو الحياة الاجتماعية [٣٤].

وتشكِّل الفلسفة المادية البِنْيةَ الفكرية التحتية، أو النموذج المعرفي الكامن للعديد من الفلسفات الحديثة: الماركسية والبرجماتية والداروينية وغيرها.

كما أنها تشكِّل الإطارَ المرجعيَّ الكامنَ لرؤيتنا للتاريخ والتقدُّم وللعلاقات الدولية، بل وأحياناً لأنفسنا. وقد ارتبطت الفلسفة المادية في عقول الكثيرين بالعقلانية والتقدُّم والتسامح... إلخ، مع أن الواقع أبعدُ ما يكون عن ذلك! ويذهب المسيري في هذه الدراسة إلى أنه قد حان الوقت لفتح باب الاجتهاد بخصوص هذه الفلسفة، نظراً لأهميتها وهيمنتها على بعض أعضاء النُّخَب الثقافية والفكرية عندنا. ويمكن تصنيف هذه الدراسة باعتبارها محاولةً في هذا الاتجاه. فهي تحاول تعريف الفلسفة المادية وسر جاذبيتها ومواطن قصورها، فهي تُخفق في تفسير ظاهرة الإنسان، بل وتشكل هجوماً على الطبيعة البشرية. وتتناول الدراسة كذلك مفهوم العقل، فتبيِّن أن العقل في حد ذاته مفهوم عائم غائم، وأن المهم هو النموذج الكامن وراء العقل. وانطلاقاً من هذا التصوُّر تحاول الدراسة حصر أهم سمات العقل المادي، كما تحاول توضيح الفرق بين العقل الأداتي والعقل النقدي. وتتناول بقية الدراسة بعض التجليات التاريخية للفلسفة المادية، مثل العلمانية الشاملة والإمبريالية والداروينية والإبادة الغربية لملايين البشر ابتداءً من عصر النهضة في الغرب في الأمريكتين حتى العصر الحديث في ألمانيا النازية والجزائر وفيتنام والبوسنة والشيشان[٣٥].

وعلى الرغم من أن هؤلاء المؤسسين الأربعة لعلم الاجتماع لم يعبروا عن آرائهم بمصطلحات متطابقة كل التطابق، إلا أن هناك اتفاقاً أساسياً فيما بينهم على الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع، وأول نقط الاتفاق فيما بينهم أنهم جميعاً يسمحون – بل ويحثون أحياناً– علماء الاجتماع على دراسة طائفة كبيرة من

النظم الاجتماعية، ابتداء من الأسرة حتى الدولة، وهم يتفقون على أنه ينبغى تحليل هذه النظم من منظور خاص هو منظور علم الاجتماع.

وفى سياق الحديث عن العلماء الأوائل المؤسسين لعلم الاجتماع، لا يمكن تجاهل دور العلماء الأمريكيين إذا أخذنا في الاعتبار، أنه مع عشرينات القرن العشرين، وصولا إلى حقبة الحرب العالمية الثانية، كان للباحثين الأمريكيين السبق في العلوم الاجتماعية. فضلا عن هجرة العديد من علماء الاجتماع الأوروبيين إلى أمريكا في فترة الحرب واستقرار العديدين منهم فيها بعد ذلك.

وفى هذا الصدد، نلاحظ أن علماء الاجتماع الأوائل فى الولايات المتحدة كان أغلبهم قادم من خلفيات علمية مختلفة. فمثلا "سمنر" Sumner كان عالم اقتصاد، وتلقى "سمول" Small تدريبه فى البداية كواعظ ديني، ثم أصبح بعد ذلك عالم سياسى ومؤرخ، وتدرب "جيدنجس" Giddings فى البداية ليصبح صحفي، واستمر كذلك لعدة سنوات عمل فيها كصحفي نشط فى الرابطة الأمريكية للاقتصاديين، وكان "روس" Ross فيلسوفا واقتصاديا. وهؤلاء وغيرهم ممن صاروا مهتمين بعلم الاجتماع فيما بعد، كان يتضح فى كتاباتهم تأثرهم بخلفيتهم العلمية السابقة. ونعرض فيما يلى لبعض تلك الأسماء الهامة.

٦- ليستر ف. وورد Lister F. Ward

يعد ليستر وورد أقدم علماء الاجتماع الأمريكيين، حيث ظهر مؤلفه الأول "علم الاجتماع الديناميى" Dynamic Sociology فى عام ١٨٨٣. وقد تميزت أفكار وورد – على خلاف الكثير من العلماء الأوائل فى أمريكا –

بالنضوج الكبير عندما كتب كتابه الأول. ويمكن القول أن أعماله التالية كانت مجرد توسعا واستفاضة فى بعض النقاط التى وضعها فى كتابه الأول. وقد كان جل اهتمام وورد منصبا على تصحيح ما كان يراه أخطاء عند كونت وسبنسر. حيث كرس نفسه ووجه طاقته لإكمال هرمية hierarchy كونت للعلوم وتوضيح أن سبنسر لم يحالفه الصواب فى التصحيحات التى قام بها. ومن الإسهامات الهامة الأخرى لوورد تأكيده على العوامل النفسية فى تطور الثقافة أو الحضارة. وقد حمل مخططه المنطقي logical scheme الذي عرض فيه لتأملاته طابع مهنته العلمية (حيث كان يعمل فى الأساس عالم نباتات صرف جانبا كبيرا من حياته فى خدمة الحكومة فى واشنطن)، وكان ذلك واضحا فى إسهاماته الرئيسة. وكان تأكيده على أهمية العوامل النفسية فى النشوء والتطور الاجتماعي يقف فى وجه مادية سبنسر التى كانت تغفل هذا العامل.

كما كان له إسهامات هامة أخرى فى بعض النطاقات البسيطة، مثل رأيه بأن عملية النشوء والتطور ليست مستمرة أو مباشرة، بل إنها بالأحرى عملية رمزية. ومهما يمكن أن يقال عن مخططة المنطقى لعلم الاجتماع، فإن مكانته كمفكر نشيط فى علم الاجتماع الأمريكى تحتل مكانة كبيرة.

٧- ويليام جراهام سمنر William Graham Sumner

درس سمنر فى ألمانيا فى عقد الستينات من القرن التاسع عشر. وقد عمل فى جامعة "ييل" Yale منذ ١٨٦٦ إلى ١٨٦٩. ثم عمل لمدة ثلاث سنوات كمدير مساعد بكنيسة فى مدينة نيويورك، ثم أصبح خورى فى كنيسة كبيرة. ومنذ عام ١٨٧٢ حتى وفاته فى ١٩١٠ شغل منصب أستاذ علوم

سياسـية واجتماعيـة فـى جامعـة ييـل. ولـم ينشـر سـمنر إلا كتـابين فـى علـم الاجتمـاع؛ الأول كـان بعنـوان "مـا الـذى تـدين بـه الطبقـات الاجتماعيـة لبعضـها البعض" What Social Classes Owe Each Other، ونشر فـى عـام ١٨٨٣، وهـو لا أهميـة لـه من منظـور علـم الاجتمـاع. وفـى عـام ١٩٠٦ نشـر كتابـه الثانـى "الطـرق الشـعبية" Folk Ways وهـو كتـاب ذو قيمـة كبيـرة. وكـان هناك كتاب ثالث فى علم الاجتماع بدأ بكتابته فى عام ١٨٩٩، لكنـه مات قبل أن ينتهـي منـه. وبمطالعـة كتابـه الثـانى "الطـرق الشـعبية"، يخـرج القارئ بانطبـاع أنه أمام رجل شتت طاقه فى أكثر من اتجاه، لذلك فكم فلا تخرج منـه بمفهوم واضـح لعلـم الاجتمـاع. وربمـا تكـون أهـم إسـهاماته فـى تطـوير علـم الاجتمـاع الأمريكي هي تأكيده المستمر على الأسلوب العلمي.

٨- ألبـيون سمول Albion W. Small

شأنه شأن أغلب علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل، جاء ألبيون سمول من خلفية علمية مختلفة. فبعد تخرجه من الكليـة، دخل معهد نيوتن اللاهوتـي Newton Theological Institute، حيث تعلم علوم اللاهوت وقرر الذهاب لعـدة سـنوات لألمانيـا وانجلتـرا لدراسـة التـاريخ والاقتصـاد السياسـي. وفـى بـرلين وليزبيـرج، تحـول لمجـال ثقـافي جديـد كـان يشـغل المـؤرخين والاقتصـاديين السياسيين الألمـان فـى تلك الفترة وهـو علـم الاجتمـاع. وبعد زواجـه فـى ألمانيـا، عاد لبلده حيث شغل موقع أستاذ تاريخ واقتصاد سياسى فى جامعة كولبى التـى كـان قد تخرج منهـا. وقد أيقظـت دراساته المشـتركة مـع "سمولر" Schmoller اهتمامه بصراع الطبقات والعوامل التى تدفع حراك الطبقات المختلفة فى محاولة

منها لتأمين إشباع رغباتها. وفى هذه الأثناء، كان قد أصبح على علم بكتَّاب علم الاجتماع فى فرنسا وبريطانيا، وحاول أن يجد مكانا فى أمريكا يمكن فيه تعليم علم الاجتماع. وفى النهاية من خلال نفوذ صديق له من خريجى جامعة جونز هوبكنز ومن خلال التأثير لأحد أول كتب البرفسور "ريتشارد ت. إلى" Richard T. Ely، فقد ترك جامعة كولبى فى إجازة لمدة عام وذهب لجامعة جونز هوبكنز، حيث أثار مخيلة بعض معلمى وخريجى الجامعة لفكرته. وعند عودته لجامعة كولبى، تم انتخابه كرئيس للمعهد، وقام بتقديم مقرر فى علم الاجتماع تحت عنوان "مقدمة لعلم الاجتماع".

وقد أسهم سمول عبر حياته فى تنمية الفكر السوسيولوجي فى أمريكا. ومن أهم هذه الاسهامات:

١- نظريته عن القوى الاجتماعية المفترض وجودها فى المصالح. والمصالح التى يراها تتضمن الصحة والثروة والعلاقات الاجتماعية والمعرفة والجمال والصواب. وتبرز نظرية المصالح تلك أثر خبرته التى تحصل عليها فى ألمانيا بشكل واضح.

٢- قد تكون أهم إسهامات سمول متمثلة فى قيامه بشرح "راتزفهومز" Ratzenhofer لعلماء الاجتماع الأمريكين.

٣- فى أثناء الجزء التالي من حياته، كان سمول مهتما بما أسماه الطريقة المنهجية methodology. ففى حين أنه اتفق مع " سمنر وجيدنجس" Sumner and Giddings فى تأكيدهما على ضرورة بناء علم الاجتماع وجعله حقيقة واقعة، فإن ما قصده بالطريقة المنهجية هو وضع التصنيفات التى يرى أنها تعطى مغزى للحقائق الموجودة. وقد كان أهم أعماله فى الطرائق المنهجية دراسته المقارنة لأعمال سنبسر و "سيكيفل" Schaeffle

وراتزفهومز، حيث أشار فيها إلى أن التوجه السياسي لعلم الاجتماع – من سبنسر حتى راتزتهوفر – حدث له انتقال من المرحلة الفنية الى المرحلة العملية، أو كما وصفه "تحول تدريجى فى المساعى البحثية من التمثيل التناظرى للبنى الاجتماعية الى التحليل الحقيقى للعمليات الاجتماعية".

٤- على النقيض من سمنر، خرج سمول من دراسته للصراع بين الجماعات بمفهوم مفاده أن الصراع يتم حله من خلال التعاون المتبادل والضبط الاجتماعي. وقد زودت هذه النظرية سمول بطريقة منهجية وعللت تأكيده على الأخلاق فى علم الاجتماع. فاهتمامه بعلم الاجتماع مقتصر على قدرة هذا العلم فى الاسهام فى التحسين الاجتماعى.

٥- يمكن القول أن سمول كان له اسهاما فى تاريخ علم الاجتماع أكثر من أى عالم اجتماع أمريكى آخر. تشهد بذلك أعماله مثل "خمسون عاما لعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة" الذى نشر فى عام ١٩١٦ و "مستقبل علم الاجتماع" ونشر فى عام ١٩٢٠، وكتابه الآخر "أصول علم الاجتماع"، والتى تتحدث جميعها ليس فقط عن عملية تطور علم الاجتماع فى أمريكا، بل تلقى الضوء كذلك على الخلفية الأوربية التى تطور فى ظلها خاصة فى ألمانيا(٣٦).

المراجـــــع

١- أليكس انكلز، مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة : محمد الجوهرى وآخرون، ط٦، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٣٤.
٢- سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، ط٣، دار المعارف، ١٩٨٢، ص ١٤٥.
3- Auguste Comte, Positive Philosophy, Adventures in Philosophy, Retrieved May 23, 2009, from http://www.radicalacademy.com/adiphiloessay42.htm
٤- أليكس انكلز، مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة : محمد الجوهرى وآخرون، ط٦، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ص٣٥-٣٦.
٥- بوتومور، تمهيد فى علم الاجتماع، ترجمة: محمد الجوهرى وآخرون، ط٥، دار المعارف، ١٩٨١، ص٤٧.
٦- محمود عوده، تاريخ علم الاجتماع، الجزء الأول مرحلة الرواد، ب. ت، ص ص٦٧-٧١.
٧- محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع : الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣، ص ص ٨٣–٨٤.
8- Dieter Bögenhold, Economics, Sociology, History: Notes on Their Loss of Unity, Their Need for Re-Integration and the Current Relevance of the Controversy between Carl Menger and Gustav Schmoller, Proceedings of the Annual Conference of the International Association for Critical Realism (IACR), Cambridge University, Cambridge, August 17-19, 2004, pp. 3-5.
٩- محمد على محمد، مرجع سابق، ص٨٤.
10- Auguste Comte, A General View of Positivism, translated by J H Bridges, Robert Speller and Sons, 1957, p. 25.
11- Ibid, pp. 26-27.
١٢- محمد على محمد، مرجع سابق، ص ص٨٥-٨٦.

13- George H. Smith, Herbert Spencer's Theory of Causation, The journal of Librarian Studies, Vol. V, No. 2, Spring 1981, p. 113.
14- Ibid, p. 121.
15- Eric Roark, Herbert Spencer’s Evolutionary Individualism, Quarterly Journal of Ideology, Vol. 27, No. 3-4, 2004, p. 6.
16- Ibid, p. 8.
١٧-محمد عاطف غيث، تاريخ النظرية فى علم الاجتماع واتجاهاتها المعاصرة، دار المعارف الجامعية، ١٩٨٥، ص ص ١٦–٢٠.
١٨-أليكس انكلز، مرجع سابق، ص ص ٣٦-٣٨.
١٩-هاينزموس، الفكر الاجتماعى: نظرة تاريخية عالمية، ترجمة: السيد الحسينى، جهينة سلطان العيسى، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب السادس والثلاثون، ط٢، ١٩٨١، ص ص ٤٠-٤١.
20- David Armstrong, Medical Sociology: Medicine, Ideas, and Culture, Companion Encyclopedia of the History of Medicine, Taylor & Francis Ltd, 1992, pp. 1641-1642.
21- Ibid, p. 1643.
٢٢-أميل دوركايم، علم الاجتماع والفلسفة، ترجمة: حسن أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٦٦، الفصل الثانى، ص ص ٦٥ – ١٠٦.
23- Robert Alun Jones, The Development of Durkheim’s Social Realism, Cambridge University Press, 1999, p. 5.
٢٤-أليكس انكلز، مرجع سابق، ص ص ٣٨–٤٠.
٢٥-توفيق الطويل، إشكالية العلوم الاجتماعية أنها ليست علوماً..، ندوة إشكالية العلوم الاجتماعية فى الوطن العربى، المركز القومى لبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٦.
٢٦-أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، ط١، دار المعارف، ١٩٨١، ص ص ٨٨-٨٩.
٢٧-أليكس انكلز، مرجع سابق، ص ص ٤٠ – ٤١.
28- James S. Coleman, Foundations of Social Theory , The Belknap Press: Harvard University Press, 1990, p.6.

29- Eisenstadt and Helle, Macro-Sociological Theory: Perspectives on Sociological Theory, Vol. 1, SAGE Studies in International Sociology, California, 1985, pp. 15-20.

٣٠-رامان، سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)، د ط، ١٩٩٨، ص١٢.

31- Spirkin and Yakhot, The Basic Principles of Dialectical and Historical Materialism, Progress Publishers, Moscow, 1971, p. 15.

٣٢-سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٤٣.

- راجع أيضاً:

- Carew Hunt, The Theory and Practice of Communism: An Introduction, The Macmillan Company, New York, 1957, pp. 16 – 40.

٣٣-المرجع السابق، ص ص ١٤٤-١٤٥.

- راجع أيضا:

- Allen, V.L., Social Analysis: A Marxist Critique, Alternative Longman, London and New York , 1975 , pp. 10 – 19.

٣٤-المرجع السابق، ص ص١٤٦-١٤٧.

- راجع أيضا:

– موريس كورنفورث، مدخل إلى المادية الجدلية، ترجمة : محمد مستجير مصطفى، دار الفارابى، ط٢، ج٣، بيروت، ١٩٨١.
– ن. كونستا نتيفنون وآخرون، المادية الديالكتيكية، ترجمة : فؤاد مرعى وآخرون، دار الجماهير، ب.ت.
– أفانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ترجمة عبد الرازق الصافى، دار الفارابى، بيروت، ١٩٨٠.
– ج. أوسيبون، قضايا الاجتماع دراسة سوفيتية نقدية، ترجمة سمير نعيم أحمد، دار المعارف، ١٩٧٠.

- V. Zotov, How to Study Historical Materialism, Progress Publishers , Moscow, 1988.

٣٥-عبد الوهاب المسيرى، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢.

36- John Lewis Gillin, The Development of Sociology in the United States, Proceedings of the Twenty-First Annual Meeting "American Sociological Society", Volume XXI “The Progress of Sociology”, December 28-31, 1926, pp. 5-7.

الفصل الرابع

علم النفس

الأهداف والمجالات والمدارس

- أهمية علم النفس
- أهداف علم النفس
- مدارس علم النفس
- مجالات علم النفس
- علاقة علم النفس بالعلوم الأخري

تعددت تعريفات علم النفس تعدداً غير قليل، واختلفت تبعاً للنظرية التي يعتنقها واضع التعريف، وتبعاً – كذلك – لاختلاف المرحلة التاريخية التي مر بها علم النفس عبر العصور. ومن الأقوال المأثورة عن عالم النفس الأمريكي الشهير (وودوورث) قوله : «أن علم النفس بدأ بدراسة الروح، لكن زهقت روحه، ثم أصبح علم العقل، لكن ذهب عقله، ثم أصبح علم الشعور، وأخشي أن يفقد شعوره». وقد فقده فعلاً بعد أن أصبح علم السلوك!

ومن تعريفات علم النفس أنه العلم الذي يدرس الأنسان، وعلى الرغم من أن علم النفس يدرس الأنسان فعلاً، فإن هذا التعريف غير دقيق نظراً لما يلي:

أ) تدرس كل العلوم الإنسان إلا قليلاً، وذلك من زوايا مختلفة بطبيعة الحال، لذا فهذا التعريف جامع ولكنه غير مانع.

ب) لا يدرس علم النفس الإنسان فقط بل الحيوان كذلك، ذلك أن موضوع علم النفس يتسع ليشمل بالدراسة جانباً من جوانب النشاط لدي معظم أنواع المملكة الحيوانية.

ومن بين تحديات موضوع الدراسة في علم النفس أيضاً، التعريف الذي يقول بأنه العلم الذي يدرس الحياة العقلية للإنسان. وهو تعريف أكثر تحديداً من سابقيه، ألا أنه لا يشمل كل ما يدرسه هذا العلم، إذ لا يدرس فقط الجوانب المعرفية cognitive (المجالات العقلية المتصلة بالأفكار وتجهيز المعلومات)، بل الجانبين النزوعي conative (الإرادي) والوجداني aflective(الانفعالي) كذلك. (١)

وهنا نتساءل ما هو علم النفس أو ما هو موضوع دراسة علم النفس؟ كان قديماً ينظر إلى علم النفس على أنه علم دراسة الروح، ثم تطور وأصبح علم دراسة العقل الإنساني، ولكن تبين أن هذه الموضوعات أمور غيبية وفلسفية

أو دينية ولا يمكن إخضاعها للدراسة العلمية التي يقوم على أساس الملاحظة والتجربة. فالروح مثلاً ليست جسماً مادياً بحيث يمكن قياسه وملاحظته ملاحظة مباشرة. وعلى ذلك أصبح ينظر لعلم النفس على أنه علم دراسة السلوك behavior . ولكن لابد لعلم النفس من تطبيق المنهج العلمي في دراسته للسلوك الإنساني. ومعني ذلك أنه العلم الذي يدرس السلوك الإنساني دراسة علمية، أي مستخدماً الأدوات والمفاهيم والمقاييس والمناهج والطرق التي يستخدمها العلم. ولكن ما معني قولنا أن علم النفس يدرس السلوك؟ معني ذلك أنه يطبق على السلوك المناهج العلمية، من ناحية، ومن ناحية أخرى يسعى إلي تحقيق الأهداف التي يسعى إليها أي علم آخر. (٢)

أهمية علم النفس

إن دراسة علم النفس تحقق أهدافاً كثيرة تختلف باختلاف الدارسين، فهناك من يدرسه لمعرفة الدلالة السيكولوجية للأحداث التاريخية الكبرى، وهناك من يهتم به للبحث عن حلول لمشاكله الخاصة في الحياة والعمل، وهناك من يدرسه بقصد اكتساب الخبرة التي تؤهله لمساعدة الآخرين، وهناك من يستهدف من وراء دراسته اكتساب القدرة على تفسير السلوك الإنساني المعقد. والواقع أننا جميعاً نحب أن ندرس الناس وأن نفهم دوافعهم وميولهم واتجاهاتهم وسمات شخصياتهم. وعلم النفس من أهم العلوم التي تدرس الناس، فجميع الناس لها تأثير سيكولوجي علينا، كما أننا بدورنا نؤثر تأثيراً سيكولوجياً على غيرنا من الناس. وآباؤنا وأقاربنا ورؤساؤنا وأصدقاؤنا وزملاؤنا يؤثرون فينا، ويعتقد بعض الناس أن علم النفس يدرس السلوك الشاذ أو المنحرف أو الشخصيات الشاذة كمرضي العقول أو النفوس أو الأطفال أصحاب المشكلات والصعوبات النفسية ولكن هذا الاعتقاد يجانبه الصواب لأن علم النفس يهتم بالشخص السوي كاهتمامه بالشخص الشاذ.

ويفيد علم النفس الدارس نفسه، وذلك عن طريق معرفة دوافعه وعواطفه، وميوله، وذكائه وقدراته معرفة موضوعية بعيدة عن الشطحات الذاتية أو عن الميل إلى الحط من قدر نفسه، فالفرد في مرحلة المراهقة مثلاً يبدأ يتساءل عن أصل العالم وعن حدوده وذلك بغية أن يجد لنفسه مكاناً فيه، كذلك يتساءل عن أصل المطلق والمجرد، وعن جوهر الألوهية، وعن المذاهب السياسية والاجتماعية مثل الشيوعية والرأسمالية، وعن الصواب والخطأ، وعن أصل التطور، وعن النسبية ومعناها، وغير ذلك من المشكلات الفلسفية والاجتماعية التي يشعر بها.(٣)

أهداف علم النفس

ماذا يهدف عالم النفس من وراء نشاطه العلمي؟ إنه يهدف في النهاية إلى الوصول إلى المعرفة التي بواسطتها يستطيع أن يفسر العلاقة النظامية بين جملة العوامل الممهدة وبين النواتج التي هي بمثابة السلوك. فالعلم هو كما نعرف نشاط موضوعي موجه للكشف عن العلاقات تحدده وتنظمه قواعد معينة في الملاحظة والكشف والوصول إلى البراهين. وعلم النفس كسائر العلوم يسعي وراء كشف العلاقات النظامية القائمة وراء قانونية السلوك. فالسلوك هو النتاج النهائي الذي تسبقه جملة عوامل تمهد لظهوره، وهذه هي التي تعرف عادة بمسببات السلوك التي قد يختلف العلماء حول عملها وتأثيرها الفعلي على الإنسان الذي تصدر عنه الاستجابة. وهذا الهدف النهائي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال أهداف أصغر هي أيضاً في جملتها أهداف أي علم، إلا وهي الفهم والضبط والتنبوء.

١- الفهم understanding

يتمثل الهدف الأول لعلم النفس بالإجابة على سؤالين **(كيف؟ ولماذا؟)** يحدث السلوك. إن كل واحد منا يريد أن يعرف كيف تحدث الأشياء

ولماذا تحدث على الشكل الذي تحدث به. ونحن نشعر شعوراً أفضل عندما نستطيع أن نفسر ظاهرة ما. وكثيراً ما قيل أن الفهم عبارة عن الهدف الأساسي للعلم، إلا أن سكنر skinner، عالم النفس الأمريكي المشهور، يقول أن الفهم هو أبسط شئ يمكن أن نحصل عليه، ففي تسميتنا للظواهر أو تحديد مسبباتها نحاول فهم الظاهرة، كأن نقول (يأكل الرجل لأنه جائع) ، (ويدخن لأنه اعتاد على التدخين)، (ويقاتل لأن لديه غريزة المقاتلة)، (ويعزف على العود لأن لديه قدرة موسيقية عليا).

أما وجهة النظر العلمية التحليلية للسلوك فهي تري معني كبيراً في هذه العبارات، وذلك لأنها عبارة عن أوصاف مكرره هي بذاتها بحاجة إلى تفسير. إن خيال الإنسان خصب للغاية، ولذا فإنه قادر على أن يضع قائمة لا متناهية بالأسباب المحتملة للسلوك، ولنفترض أن طفلاً سقط في أحد الأنهار ومات غرقاً. ونفترض أننا سألنا مجموعة من الناس عن الأسباب المحتملة لموت الطفل فإننا من المتوقع أن نسمع إجابات كالتالية كلها تمثل محاولات للفهم:

(١) إن آلهة الأنهار كانت جائعة في ذلك اليوم.

(٢) كان للطفل دافع قوي للإستقلال مما حدى به للمغامرة والابتعاد عن البيت.

(٣) إن فترة شباب والد الطفل كانت لا أخلاقية وأن موت إبنه جاء عقاباً للأب.

(٤) إن دافع الموت عند الطفل أقوي من دافع الحياة.

(٥) إن إحدى العرفات قد حجبت له.

(٦) إن الطفل اختار الموت بحرية تامة وإرادة ذاتية.

(٧) إن لدي ذلك الطفل رغبة لا شعورية في عقاب نفسه.

إن كل هذه العبارات تقدم نوعاً تقدم نوعاً، ولكن، ومن الناحية العلمية، لا يوجد لدينا أساس موضوعي لاختيار ما هو أفضل التفسيرات سابقة الذكر. ولذا فإن الأفكار التي تقدم فهماً حقيقياً للظاهرة يجب أن تكون من نوع يمكن إثباته تجريبياً، ومما لا يمكن نقضه بسهولة عن طريق أفكار أخري.

٢ – التنبوء prediction

يتمثل الهدف الثاني لعلم النفس في الإجابة على الأسئلة متي؟ وماذا؟ إن محك أو معيار الفهم الذي يتبناه العلماء هو التنبوء. ولذا يمكن القول أن أي محاولة لزيادة الفهم تكون ذات قيمة حين تكون نتائج الوصف هي التنبوء الدقيق عن الظاهرة الأصلية. ففي العلم تقيم المفاهيم والنظريات إلى المدي الذي تسمح فيه بإجراء التنبؤات التي لم يكن بالإمكان أن تحدث في غياب هذه المفاهيم أو النظريات.

فعالم النفس عن طريق الدراسة التجريبية يستطيع أن يتنبأ، مثلاً، عن مستوي التحصيل الأكاديمي، للطالب من معرفته بدرجة ذكاء الطالب، وعلى الرغم من أن هذا التنبؤ لا يكون دقيقاً مئة بالمئة، كما هو الحال في العلوم الطبيعية، إلا أنه تنبؤ في الاتجاه الصحيح، وبدرجة معينة من الاحتمالية، ويساعد المربي في تخطيطه واتخاذه للقرارات التربوية.

ولابد هنا من التفريق بين الشعور الذاتي بالفهم من ناحية وبين الدقة التنبؤية من ناحية ثانية. فالشعور بالفهم هو عبارة عن أثر ذاتي يسعي وراءه الكاتب والفنان، وليس العالم، لقد قال أولبورت، كما قال فرويد من قبله، بأن كل الكتاب علماء نفس بالبديهة أو بالحدس، وهذا القول يعكس قدرة هؤلاء الكتاب على فهم الشخصية وسبر أغوارها، وتقديم وصف شامل ودقيق لأكثر الانفعالات والمواقف الإنسانية تعقيداً. وربما أن خير مثال على ذلك هو ما كتبه دستوفسكي، الكاتب الروسي

الشهير في كتابيه الجريمة والعقاب، والمقامر. إلا أن هذا الفهم لم يأت نتيجة التصنيف والقياس للسمات أو الدوافع او العلاقات البنائية للشخصية البشرية.

٣- **الضبط control**

يعني الضبط في المختبر قدرة العالم في أن يتحكم ببعض العوامل المستقلة، لمعرفة أثرها على العوامل التابعة بالطريقة التي سوف نراها بعد قليل. وهذا يستدعي بالضرورة ضبط بعض خصائص العالم الخارجي خارج المختبر وبعض الخصائص المتعلقة بالفرد موضوع الدراسة. إن ضبط العوامل هو الذي يميز العالم عن الإنسان العادي. فالعالم لا يصدر أحكامه إلا بعد عدد من الملاحظات المضبوطة تسمح له بإصدار حكم فيه درجة من التعميم.[٤]

مدارس علم النفس

المدرسة البنائية

في عام ١٨٧٩ اسس وليام فونت William wundt ومن علماء الفسيولوجيا الألمان علم النفس كعلم مستقل وذلك بإنشاء أول معمل تجريبي لعلم النفس. وأجري دراسات مبكرة على ظواهر الإحساس والتخيل. وبعد قليل ظهرت معامل أخري لعلم النفس في أوروبا وأمريكا.

ولقد أطلق على فونت وأتباعه أنصار المدرسة البنائية أو البنائيين، ذلك لأنهم كانوا يدعون أن الخبرات العقلية المعقدة ما هي إلا تركيبات مكونة من حالات عقلية بسيطة مثل المركبات الكيماوية التي تتكون من عناصر كيماوية بسيطة. وافترضوا أنه من وظائف االسيكولوجي أن يدرس تراكيب الوعي أو الشعور وأن يضع القوانين التي تشرح تكوينه. أما منهج البنائية فكان عبارة عن الحليل الاستبطاني أي تحليل الخبرات الشعورية عن طريق الاستبطان.

المدرسة الوظيفية

في حوالي عام ١٩٨٨ نشأت مدرسة من مدارس علم النفس أسسها بعض العلماء الذين لم يرضوا عن اتجاه البنائية في التوكيد على الحالات العقلية، فبدلاً من التساؤل كما فعل البنائيون ما هو الشعور؟

اهتم أنصار المدرسة الوظيفية بسؤال آخر: هو لماذا يوجد الشعور؟ أي ما هي أغراضه أو أهدافه أو وظائفه؟، ونظراً لأنهم أرادوا معرفة كيفية استخدام الناس للخبرة العقلية في التكيف مع البيئة، فقد أطلق عليهم اسم (الوظيفيين). ومن قادة المدرسة الوظيفية وليام جيمس William James وجيمس أنجيل games angell وفي الواقع أرادوا أن يركزوا انتباههم على دراسة عملية التعلم learning process كذلك كان من أشهر زعمائها جون ديوي john dewey الفيلسوف والتربوي الأمريكي الشهير.

مدرسة التحليل النفسي

في أوائل الفترة من سنة ١٩٠٠، عندما انفصلت المدرسة الوظيفية عن المدرسة البنائية شهدت أيضاً هذه الفترة تأسيس مدرسة سيكولوجية أخري هي مدرسة التحليل النفسي والتنويم المغناطيسي ولقد قاد حركة التحليل النفسي عالم النفس السويسري سيجمند فرويد وركز اهتمامه على العمليات العقلية اللاشعورية. ولقد كان فرويد رجلاً من رجال الطب ومن المتخصصين في الطب العقلي وفي الأعصاب، وكان يهتم في المحل الأول بفهم وعلاج الاضطرابات العقلية، ولم يكن لديه إلا اهتمام قليل جداً بالمشاكل التقليدية الأكاديمية في علم النفس مثل طبيعة الإحساس أو الإدراك أو التفكير أو الذكاء. ولذلك أهمل فرويد مشكلة الشعور ووجه جهوده نحو فهم ووصف ما أسماه اللاشعور، وفي نظره كان هذا الجزء من الحياة العقلية لايمكن سبر أغواره أو ارتياد مجاهله بمناهج علم النفس السائدة في أيامه أي منهج الاستبطان أو منهج التجريب المعملي .

وتبعاً لفرويد أصبح علينا أن نبحث عن المصادر الأولية للصراعات والاضطرابات العقلية في أعماق اللاشعور. فاللاشعور هو مستودع الآمال والآلام والرغبات المكبوتة التي تؤدي إلى ظهور الاضطرابات العقلية ومن أجل ذلك أي من أجل دراسة ظاهرة اللاشعور ابتكر فرويد منهجاً خاصاً هو منهج التحليل النفسي، ويقوم هذا المنهج على أساس تفسير أفكار المريض تلك الأفكار التي تنساب انسياباً حراً بفعل التداعي الحر ، وكذلك عن طريق تحليل أحلام المريض. هذه النظرية كانت تمثل في وقتها خروجاً في علم النفس على المضمون والمنهج السائدين في وقته. وعبر السنين جذب منهج التحليل النفسي كثيراً من الأنصار والمؤيدين. كما خلق كثيراً من الأعداء والمعارضين، وأدي ذلك إلى حدوث كثير من الأعداء والمعارضين، وأدي ذلك إلى حدوث كثير من التطوير والتعديل في هذا المنهج.

المدرسة السلوكية

في خلال الحرب العالمية الأولي (من ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨) ظهر مجموعة من علماء النفس في أمريكا أطلقوا على أنفسهم اسم السلوكيين، وكانت السلوكية كمدرسة التحليل النفسي لا تهتم بالشعور، وكانت تتشكك في قيمته، ولقد كان من أشهر روادها جون واطسون john Watson وكان اهتمامه الأساسي بإجراء التجارب على الحيوانات ولم يكن للمناهج المعروفة في عهده أي فائدة في هذا النوع من التجريب فلم يكن الشعور أو الاستبطان أو اللاشعور من المناهج ذات القيمة العملية بالنسبة للتجارب التي تجرى على الحيوان تلك التجارب التي اهتم بها واطسون، وبطبيعة الحال كان أول ما يلاحظه المجرب هو السلوك أي سلوك الحيوان، وكانت فكرة السلوك هي أهم فكرة عند السلوكي لأنه موضوعي ويستبعد الذاتية المتضمنة في دراسة الشعور والاستبطان والتداعي الحر من اللاشعور، نقل السلوكيون هذا المنهج التجريبي من دراسة

سلوك الحيوان إلى دراسة سلوك الإنسان. ولقد اعتمد السلوكيين اعتماداً كبيراً على الفسيولوجيا أي علم وظائف الأعضاء ولذلك كانت أعظم اضافاتهم لعلم النفس هي دراستهم للإستجابات الشرطية، وعلي الرغم من أن آراء السلوكية قابلت بعد ذلك كثيراً من التحدي والنقد إلا أن اتجاهها الموضوعي ، انتقل إلي علم النفس المعاصر، وخاصة في أعمال كلارك هل clark hull وادوارد تولمان Edward tolman وغيرهما.

مدرسة الجشطالت:

في أثناء الحرب العالمية الأولي أجرى أحد العلماء الألمان واسمه ولفانج كهلر ، عدة تجارب على عملية التعلم عند القردة ولقد اقنعته هذه التجارب بأهمية عملية الاستبصار في عملية التعلم. فالتعلم في نظره يتم عن طريق الاستبصار أي الفهم العام لعناصر الموقف الذي يوجد فيه الكائن الحي. فأيدت تجارب كهلر نظرية رجل آخر يدعي ماكس ورذيمر أن الخبرة ككل تعتبر أكثر أهمية من عناصرها أو أجزائها في تحديد معناها. فالكل له معاني أكثر من مجرد تجميع معاني أجزائه جزءاً جزءاً. ومدرسة الجشطالت استمدت اسمها gestalt school من كلمة ألمانية معناها الصيغة ، والصيغة في مدركاتنا الحسية تتكون من شكل وأرضية بحيث يكون الشكل قوياً وبارزاً وواضحاً، أما الأرضية فتكون أقل بروزاً ووضوحاً. ومن أمثلة الصيغ الصورة أو اللوحة المرسومة او الرسم على القماش حيث تمثل الزهور أو الزخارف الشكل ويمثل القماش وما يوجد به من فراغات غير مرسومة الأرضية. (٥)

مجالات علم النفس

يمكن تلخيص أهم مجالات علم النفس فيما يلي:

١- علم النفس العام general psychology

وهو ذلك الفرع من فروع علم النفس الذي يهدف إلي الكشف عن المبادئ والأسس والقوانين العامة التي تفسر السلوك بعامة، والسلوك الإنساني بخاصة، فهو يدرس دوافع السلوك والتعلم والتذكر والإدراك والتفكير والذكاء والشخصية.

٢- علم النفس الكلينيكي clinical psychology

وهو ذلك الفرع من فروع علم النفس الذي يدرس الاضطرابات الانفعالية والفكرية للأفراد بغرض تشخيصها وعلاجها.

٣- علم النفس المقارن comparative psychology

هو ذلك الفرع من فروع علم النفس الذي يدرس سلوك مختلف الأنواع من الكائنات الحية، وقد تشمل هذه الدراسة سلوك النباتات، بغرض دراسة أوجه الشبه والاختلاف في السلوك بين مختلف أنواع الكائنات الحية.

٤- علم النفس الفسيولوجي physiological psychology

وهو دراسة الأساس الفسيولوجي للسلوك والحياة العقلية والوجدانية أو دراسة دور أعضاء الجسم المختلفة في السلوك بأنواعه المختلفة.

٥- علم نفس النمو developmental psychology

هو ذلك الفرع الذي يهدف إلى دراسة مراحل نمو الكائنات الحية، والعوامل التي تؤثر فيها، والخصائص العامة التي تميز كل مرحلة من مراحل النمو،

ومطالب النمو في كل مرحلة عمرية، بالاضافة إلى القوانين والمبادئ التي تحكم النمو.

٦- القياس النفسي psychological measurement

هو التقدير الكمي للظواهر النفسية المختلفة ويستخدم القياس النفسي في دراسة النواحي الحركية، والمعرفية، والوجدانية والنمائية المختلفة والمعالجة الإحصائية لنتائج هذه الدراسة ويطلق علي فرع القياس النفسي المرتبطة بالنواحي العقلية أو المعرفية فقط اسم القياس العقلي psychometry.

٧- علم النفس الإرشادي counseling psychology

هو ذلك الفرع من فروع علم النفس الذي يختص بدراسة فنيات حل مشكلات الأفراد الأسوياء الذين يشعرون بحاجة إلى مساعدة عند اتخاذ قرارات تربوية أو مهنية أو عملية، ويعتمد الإرشاد على الاتصال المباشر بين الشخص الذي يعاني من مشكلة (المسترشد) والشخص الخبير الذي يعاون المسترشد على حل المشكلات التي تواجه (المرشد) بحيث يتم هذا الاتصال عن طريق التقبل المتبادل بينهما.

٨- علم النفس الفارق individualized psychology

يهدف إلى دراسة الفروق القائمة بين الأفراد والجماعات في القدرات، والاستعدادات والميول، والاتجاهات والقيم، كما يدرس أسباب تلك الفروق والعوامل المؤثرة فيها وذلك باستخدام وسائل القياس النفسي والتربوي المختلفة.

٩- علم نفس الشواذ abnormal psychology

يهدف إلى دراسة الأسس النفسية العامة للسلوك الشاذ ويعمل على التعرف على أسباب حدوث هذا السلوك الشاذ. ويتضمن هذا الفرع من فروع علم النفس دراسة المعوقين جسمياً وعقلياً واجتماعياً، ودراسة

الموهوبين والعباقرة أيضاً. كما يدرس هذا الفرع شذوذ الظواهر العقلية والسلوكية بهدف التعرف على أسبابها وعلاجها.

١٠- **علم نفس الحيوان zoo psychology**

يهدف إلى دراسة الأسس النفسية لسلوك الحيوان بغرض دراسته وتفسيره، ويرجع الاهتمام بدراسة سلوك الحيوان إلى أن من السهل إجراء التجارب العملية عليه. وهذه التجارب تفيد في مجالات التعلم والدافعية.

١١- **علم النفس الصناعي industrial psychology**

ويهدف إلى تطبيق مبادئ علم النفس في ميدان الصناعة لزيادة الكفاية الانتاجية للعمال. ويقوم هذا الفرع من فروع علم النفس بدراسة الشروط النفسية والمادية للمصانع بالإضافة إلى تدريب العمال وأعداد المدربين.

١٢- **علم النفس الهندسي engineering psychology**

وهو علم جديد قد يعني الهندسة البشرية أو علم الحركة الإنسانية. وهو علم يهتم بتدريب الأفراد ودراسة دوافعهم، وطرق العمل وبنيته والتصميم الهندسي لأدوات العمل المناسبة للإنسان، بالإضافة إلى دراسة تصميم السلع الاستهلاكية.

١٣- **علم النفس الصيدلي psychopharmacology**

وهو دراسة التأثيرات النفسية للعقاقير، وهو علم حديث يتسم بالصعوبة ومن أهم دراسات هذا الفرع تأثيرات العقاقير على المرضي بالذهان. بالإضافة إلى دراسة أثر استخدام العقاقير في علاج الاضطرابات النفسية المختلفة.

١٤- **علم النفس التجاري commercial psychology**

يهتم هذا الفرع بدراسة دوافع وحاجات المستهلكين الشرائية، كما يدرس هذا الفرع أيضاً فن الإعلان وطرق معاملة الزبائن والعوامل النفسية التي تؤثر على المشتري والمستهلك.

١٥- علم النفس الحربي war psychology

وهذا الفرع يستخدم مبادئ وقوانين علم النفس في مجال القوات المسلحة لزيادة كفاءتها باستخدام الاختبارات النفسية لاختيار أصلح الجنود والضباط توزيعهم على الوحدات العسكرية المختلفة بما يتناسب وقدراتهم واستعداداتهم وخصائصهم الشخصية. ويهتم هذا الفرع أيضاً بمحاربة الإشاعات والدعايات الضارة، ومقاومة الحرب النفسية وطرق مواجهة المواقف المفاجئة بالإضافة إلى تطبيق مبادئ التعلم على برامج التدريب العسكري لضمان نجاح هذه البرامج وتحقيق أهدافها.

١٦- علم النفس الجنائيcriminal psychology

ويهتم هذا الفرع بدراسة العوامل والدوافع المختلفة التي تؤدي إلى حدوث الجريمة واقتراح أفضل الأساليب لعقاب المجرم وعلاجه أو إصلاحه.

١٧- علم النفس الاجتماعي social psychology

ويهدف إلى دراسة سلوك الأفراد والجماعات في المواقف الاجتماعية المختلفة، بمعني دراسة أنماط التفاعل الاجتماعي المختلفة أي التأثير المتبادل بين الأفراد والجماعات بعضهم البعض.

كما يهتم بالمشكلات الاجتماعية وآثارها على السلوك الإنساني، بالإضافة إلى دراسة الرأي العام والدعاية والزعامة والقيادة بالإضافة إلى دراسة العوامل المرتبطة بالسلوك غير السوي. ووسائل تعديله.

١٨- علم النفس الرياضي sport psychology

وهو أحد فروع علم النفس التربوي الذي يهتم بدراسة سلوك الرياضيين، مثل سلوك المنافسة والتعاون وقيادة الفرق الرياضية وأساليب تدريب اللاعبين.

١٩- علم نفس الخوارق para psychology

وهو أحد فروع علم النفس الحديثة التي يبحث في الظواهر النفسية الخارقة مثل القيام بأعمال لا يستطيع القيام بها أي كائن بشري أو معرفة أحداث ووقائع لا يستطيع أي كائن بشري آخر معرفتها أو رؤيتها.

٢٠- علم النفس البيئي environmental psychology

يعد علم النفس البيئي أحد الفروع الحديثة والهامة لعلم النفس، حيث ازداد اهتمام علماء النفس بدراسة الآثار المترتبة على التغيرات البيئية على السلوك الإنساني بعد أن حدثت تغيرات سريعة في البيئة. (١٠)

٢١- علم النفس التجريبي experimental psychology

يعمل المشتغلون في هذا المجال على دراسة الإنسان والحيوان في المختبر باستخدام الطريقة التجريبية ووسائل للضبط تعتبر في غاية الدقة. وعلى الرغم من أنهم ليسوا الوحيدين من علماء النفس الذين يستخدمون الطريقة التجريبية، إلا أنهم هم هؤلاء النفر من المشتغلين في علم النفس اللذين يهتمون بدراسة طبيعة استجابات الأفراد للمثيرات الحسية وطبيعة الإدراك والتعلم والتذكر ضمن موقف تجريبي مضبوط بحيث يمكن من خلاله التحكم في عامل واحد أو جملة عوامل لقياس تأثيره أو تأثيرها على طبيعة استجابة الفرد. ويتعدي اهتمام هؤلاء العلماء بسلوك الإنسان إلى سلوك الحيوان للإعتقاد بأن دراسة الحيوان تلقي ضوءاً كبيراً على سلوك الإنسان. ناهيك عن أن الحيوانات متوفرة بكثرة من أجل الدراسة والتجريب.

٢٢- علم النفس التربوي والمدرسي school educational psychology

يعمل المشتغلون في هذا الميدان على دراسة المشكلات المتعلقة بسلوك التعلم والتعليم والمشكلات النمائية التي تظهر في المدرسة كتأخر

القراءة والكتابة وبطء التعلم والمشكلات الانفعالية المصاحبة لذلك. وغالباً ما يكون لدي المشتغل في هذا الميدان خلفية في علم النفس الإكلينكي وعلم النفس التطوري معاً. وعلى الرغم من أن عالم النفس التربوي يمكن أن يعمل في تقييم عملية التعلم والتعليم في ميدان التعليم الرسمي، إلا أنه غالباً ما يعمل في الجامعات في مجال إعداد كوادر المعلمين المتخصصين للتعليم في المراحل المختلفة، وفي مجال إجراء الأبحاث حول سلوك التعلم والتعليم، وإعطاء الاختبارات وتحليلها، وتخطيط برامج مساعدة الأطفال في البيت والمدرسة ومساعدة المعلمين في حل مشكلاتهم الصفية.(٦)

***علاقة علم النفس بالعلوم الأخرى:-**

هناك صلة وثيقة تربط علم النفس بطريقة مباشرة واحياناً غيرمباشرة بمختلف علوم المعرفة الطبيعية منها والاجتماعية والانسانية ومنها:-

١- علم النفس وعلم الوراثة

يساعد علم الوراثة على التعرف على ماضي الفرد واثره في حاضره ومستقبله فلا شك ان سلوك الفرد يتوقف ويتأثر الى حد ما على ما ورثه من الاباء والاجداد وهذ يتطلب دراسة العوامل الوراثية للمجتمع والبيئة التي يعيش فيها فالعمليات العقلية والحالات الانفعالية كلها استعدادات وراثية فطرية عامة ولاشك ان سلوك افراد المجتمع هي نتاج وراثة هذه العمليات والانفعالات .

٢- علم النفس وعلم الطب والتشريح

لامجال لدارسة النفس الا بالتعرف على الجسم واخذه بعين الاعتبار فمن الملاحظ ان الجسم الصحيح ينتج عنه افعالاً نفسية صحيحة بينما يميل المرض الى اظهار النفس بمظهراخر ان علم النفس يقول اليوم بوحدة النفس

والجسم وبتعاونهما معاً في اصدار السلوك ،ويؤكدعلى انه لابد في دراسة النفس من خلال الجسم والتعرف على الحواس المختلفة والجهازالعصبي والجهاز الغدي مما يلقي الضوء على الظاهرة السلوكية.

٣-علم النفس وعلم الاجتماع

ان علم النفس يهتم بكثير من المشاكل التي يبحثها علم الاجتماع ويساهم مساهمة فعالة في خدمة المجتمع ، فمثلاً بحوث علم النفس في الاحساس والادراك والتذكر والتفكير والانفعالات لدى افراد المجتمع ويبحث كذلك في تكوين الاسرة والنظم الاجتماعية واساليب تفاعل وتكوين الجماعات وما يحدث فيها من عقائد وعادات وتقاليد وكل هذه الامور لها اثر العامل النفسي للفرد ومن هنا نشأ فرع خاص في علم النفس هو علم النفس الاجتماعي وهو علم قائم على اساس المزاوجة بين علم النفس وعلم الاجتماع .

٤-علم النفس وعلم التربية

هناك ارتباط وثيق بين علم النفس وعلم التربية فقد نشأ فرع علم النفس التربوي بهدف تطبيق المفاهيم السيكولوجية في ميدان التربية ان تطبيق هذه المفاهيم في التربية هي قلب للتربية القديمة راساً على عقب فتركت الفلسفة التربوية القديمة واخذت بفلسفة سيكولوجية جديدة غايتها بالافراد كل حسب طاقاته وامكانياته واستعداداته ووظيفة المدرسة فيها اصبحت تمهد الطريق للتلميذ لكي ينمو نمواً متكامل الجوانب وجعلت النظام المدرسي قائم على الحرية والتعاون بعد ان كان قائماً على الضغط والكبت كما اصبح الاهتمام بالنشاط الذاتي للتلميذ وفاعليته في العملية التربوية بعد ان كان منصباً على الطريقة التقليدية التي تعتمد على السلبية المطلقة من جانب التلميذ واهتمامها بالحفظ والتلقين وخلاصة ماتهدف اليه التربية الحديثة هو ضرورة أعتماد التربية على الدراسات السيكولوجية للتلاميذ في الحقل التربوي.

٥-علم النفس وعلوم الدين

وهناك صلة اكثر ارتباطاً بين علم النفس وعلوم الدين بتعاليمه وقوانينه وشرائعه السماوية ،فقد قدم لنا القران الكريم امثلة ومسميات لكل حالة نفسية يمر بها الانسان خلال قوة وضعف التزامه بتعاليم الدين ومنها النفس الامارة بالسوء عندما يكون الانسان رهين شهواته النفسية وعلى العكس من ذلك اذا كان الانسان مهذب لنفسه وعلى علاقة قوية بالله وملتزم بتعاليمه واوامره سميت نفسه بالنفس الراضية والمطمئنة وكذلك قدمت لنا السنة الشريفة والتراث الاسلامي امثلة عن معرفة الانسان نفسه وهي اعظم المعرفة فمن خلال هذه المعرفة يعرف ربه وعظمته ويعرف كيف يتعامل مع ابناء جنسه ومن امثلة تلك الاحاديث: (اعظم المعرفة معرفة الانسان نفسه)(من عرف نفسه عرف ربه)(عجبت لمن لايعرف نفسه كيف غيره) وغيرها من الروايات والاحاديث التي توكد على معرفة النفس .(٧)

مناهج البحث في علم النفس

مناهج البحث في علم النفس:

هناك نوعان من المعلومات في علم النفس :

- علم النفس الدارج .
- علم النفس العلمي .

علم النفس الدارج :

يستنبط الإنسان من خلال تجارب حياته ومخالطته للناس الكثير من المعلومات عن طبائعهم وتصرفاتهم ..ويستخدمها في التعامل معهم .لكن هذه المعلومات ليست علما حقيقيا لأن الناس يستنبطونها على أساس التخمين والظن فهي معرضة للأخطاء بشكل واضح .

علم النفس العلمي :

الذي يميز علم النفس العلمي عن علم النفس الدارج هو منهج البحث العلمي الذي يؤدي للوصول إلى الحقائق والتأكد من صحتها .

خطوات البحث العلمي :

١ – تحديد المشكلة وصياغتها في شكل سؤال أو عبارة واضحة موضوعية

٢ – جمع المعلومات عنها ،ومراجعة الدراسات السابقة .

٣ – وضع الفروض التي تفسر المشكلة

٤ – اختبار صحة الفروض

٥ – الوصول إلى النتائج ومناقشتها

يختار الباحث منهج البحث الذي يتبعه : لمزاياه الخاصة ،ولملاءمته للمشكلة التي يدرسها .

هناك ثلاثة أنواع رئيسية لمناهج البحث :

١ – المنهج التجريبي

٢ – المنهج المسحي أو الميداني

٣ – المنهج الإكلينيكي

المنهج التجريبي :

المنهج التجريبي أدق مناهج البحث في علم النفس .

خصائص المنهج التجريبي :

١– التناول أو التغيير المنظم للمتغيرات .

٢– الضبط

٣– إمكانية التكرار

١ – التناول :

المتغير : هو ما تتغير قيمته أو كميته ويمكن قياسه (مثل : الضوء – السلوك)

المتغير المستقل : هو المتغير الذي يقوم المجرب بتغييره بطريقة منظمة في التجربة .

المتغير التابع : هو المتغير الذي يقيسه المجرب كي يرى كيف تأثر بالتغيير الذي جرى على المتغير المستقل .

المجموعة التجريبية : هي المجموعة التي يقدم لها المتغير المستقل .

المجموعة الضابطة : هي المجموعة التي يقاس فيها المتغير التابع دون تقديم متغير مستقل . وهي تفيدنا بأساس يمكن المقارنة بينه وبين المجموعة التجريبية لمعرفة أثر المتغير المستقل على المتغير التابع .

يجب أن يوجد في كل تجربة على الأقل متغير مستقل ومتغير تابع، غير أن الطرق الإحصائية جعلت من الممكن أن تتضمن التجربة أكثر من متغير مستقل .

٢ – الضبط :

الضبط : هو ضبط المتغيرات المختلفة في التجربة بحيث لا يسمح لمتغير عدا المتغير المستقل التأثير في المتغير التابع .

هناك طريقتان لضبط المتغيرات :

الطريقة الأولى : استخدام المجموعات الضابطة لمقارنة سلوك أفرادها بسلوك أفراد المجموعات التجريبية .

الطريقة الثانية : التصميم التجريبي قبل و بعد : وفيه يقوم بالمقارنة بين سلوك نفس المجموعة من الأفراد قبل تقديم المتغير المستقل لهم وبعد تقديمه .

ضبط المتغيرات أمر شاق من ناحيتين :

– قد يكون من الصعب في بعض الحالات معرفة جميع المتغيرات الهامة .

– قد يكون من الصعب في بعض الأحيان جعل هذه المتغيرات متماثلة بين المجموعة التجريبية والضابطة .

يلجأ العلماء لعدة طرق لضبط المتغيرات بين المجموعة التجريبية والضابطة :

١ – طريقة الأزواج المتماثلة :

يقوم المجرب بتطبيق اختبار معين الذكاء مثلا على مجموعة كبيرة من الناس ثم يكون أزواجا متماثلة بحيث يضع كل فردين لهم نفس الدرجة في زوج ،وأخيرا يقسم الأزواج بين المجموعتين التجريبية والضابطة ،فيكون أحد فردي أي زوج في المجموعة التجريبية والفرد الآخر في هذا الزوج في المجموعة الضابطة .

ويعاب على هذه الطريقة حاجة المجرب لتطبيق الاختبار على عدد كبير من الناس للوصول للأزواج المتماثلة .

٢ – طريقة المجموعتين المتماثلتين :

يراعي المجرب أن تكون المتوسطات ومدى التشتت للمتغيرات الهامة واحدة في المجموعتين التجريبية والضابطة .

٣ – طريقة المجموعتين العشوائيتين :

عندما يقوم المجرب باختيار مجموعتين عشوائيتين ففي العادة ستكونان متماثلتين لأن الفروق بين الأفراد في المتغيرات الهامة سيلغي بعضها بعضا، وبذلك لن تكون الفروق بين المجموعتين ذات دلالة إحصائية .

٣ – إمكانية التكرار :

– إن إمكانية إعادة التجربة تحت نفس الظروف تمكن الباحث أو غيره من الباحثين من التأكد من صحة النتائج .

– كما أنها تمكن الباحثين من إعادة التجربة لإجراء بعض الملاحظات بدلا من انتظار حدوثها لوقت طويل.

عيوب المنهج التجريبي :

- لا يمكن استخدامه في جميع أنواع السلوك ،وخاصة إذا كان في التجربة ضرر على الأفراد .
- الظروف الاصطناعية التي تحدث فيها التجربة تختلف في بعض النواحي عن الظروف الطبيعية فالموقف التجريبي مثلا يؤثر على سلوك الأفراد ،وهذا الأمر يجب أن يؤخذ في عين الاعتبار عند تفسير النتائج أو تعميمها .

٢ – المناهج المسحية والميدانية :

أهم مزاياه أنه :

– يمكن الباحثين من ملاحظة السلوك كما هو في المواقف الطبيعية .

– ويستطيع دراسة موضوعات لا يستطيع المنهج التجريبي دراستها .

الوسائل المستخدمة في المنهج المسحي والميداني :

الملاحظة :

– فيها تتم ملاحظة السلوك في الظروف الطبيعية خلال فترات محددة لمدة معينة من الزمن .

– قد يقوم أكثر من باحث بالملاحظة للتأكد من ثبات الملاحظة والتقليل من أخطاء التحيز .

– تسمى الملاحظة طويلة الزمن لتتبع ظاهرة معينة لمعرفة مراحل نموها بالمنهج التتبعي وهو كثير الاستخدام في علم نفس الطفل وعلم نفس النمو .

المقابلة أو الاستخبار :

المقابلة : حديث بين الباحث والمفحوص يوجه فيه الباحث أسئلة معينة لجمع بيانات حول الموضوع الذي يبحثه .

الاستخبار : أسئلة مكتوبة معدة من قبل حول موضوع معين تقدم للمفحوص للإجابة عنها .

تستخدم هاتان الوسيلتان بكثرة في معرفة الرأي العام واتجاهات الناس .

يجب الاهتمام بأمرين :

١ – دقة تمثيل عينة الأفراد الذين تجمع منهم البيانات للمجتمع المراد دراسته .

٢ – دقة الأسئلة وعدم تحيزها .

يستخدم العلماء عدة وسائل إحصائية للتأكد من صدق وثبات المقابلة أو الاستخبار .

الاختبارات :

– تستخدم لدراسة الفروق بين الجماعات أو السلالات .

– لا بد من التأكد من صدقها وثباتها .

الدراسات الارتباطية (دراسة العلاقة بين متغيرين) :

الفرق بين المنهج التجريبي والمنهج المسحي في دراسة العلاقة بين متغيرين :

المنهج التجريبي	المنهج المسحي
- يتحكم الباحث في المتغير المستقل ويلاحظ ما يحدث في المتغير التابع . - يحدد أي المتغير هو السبب وأيهما النتيجة.	- يلاحظ الباحث العلاقة بين المتغيرين كما هما موجودان في الطبيعة ويحاول أن يحدد هذه العلاقة بالأساليب الارتباطية . - لا يمكن من خلاله معرفة أي التغيرين السبب وأيهما النتيجة .

٣ – المنهج الإكلينيكي (دراسة الحالة):

– هو المنهج الذي يستخدمه المختص النفسي في دراسة المشكلات الشخصية للأفراد الذين يزورون العيادة النفسية.

– يجمع بيانات تفصيلية عن تاريخ حياة الفرد وظروف تنشئته وعلاقاته عن طريق مقابلة الفرد أو من تربطهم علاقة به ومن خلال الاختبارات النفسية .

– من خلال البيانات يتم تشخيص المشكلة ووضع البرنامج لعلاجها .

– استخدمت دراسة الحالة في دراسة السلوك الشاذ والشخصية الشاذة ،فهي تفيد في معرفة أسبابها والطرق الفنية في المقابلة الإكلينيكية وطرق العلاج .

– من خلال هذا المنهج وضع فرويد نظريته عن الشخصية ،ووضح دور الصراع اللاشعوري في توجيه سلوك الأفراد ،وأهمية الأحلام في التعبير عن الرغبات ،وأهمية السنوات الخمس الأولى في حياة الطفل في توافقه فيما بعد .

مزايا المقابلة الإكلينيكية :

١ – تساعد على ملاحظة الفرد ككل لفترة طويلة مما يساعد على الكشف عن ظروف أثرت في شخصيته يصعب الكشف عنها بغير هذه الطريقة .

٢ – تعتبر مصدر هاما لتكوين الفروض التي يتم التحقق منها فيما بعد بطرق أخرى .

عيوب المقابلة الإكلينيكية :

١– المعلومات التي تمدنا بها تفتقر للدقة والضبط .

٢– تتأثر المعلومات بذاتية الباحث .

٣– من الصعب فيها معرفة السبب والنتيجة في السلوك الملاحظ . [٨]

المراجع

١) أحمد محمد عبد الخالق، أسس علم النفس، الطبعة الثالثة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ص ١٩ – ٢٠.

٢) عبد الرحمن عيسوي، علم النفس العام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ١٠.

٣) المرجع السابق، ص ص ٢٨ – ٢٩.

٤) عبد الرحمن عدس ومحي الدين توق، المدخل إلى علم النفس، الطبعة الثانية، دار جون وايلي، إنجلترا، ١٩٨٦، ص ص ٨ – ١٠.

٥) عبد الرحمن عيسوي، مناهج البحث في علم النفس(دراسة في طرق تصميم البحوث النفسية) مع دراسة حقلية مقارنة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص ص ١٩ – ٢٢)

٦) محمود عبد الحليم منسي، المدخل إلى علم النفس التعليمي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص ص ١٨– ٢٢.

٧) عبد الرحمن عدس و محي الدين توق، مرجع سابق، ص ص ١٦ – ١٨.

8) http://www.google.com.eg/url?sa=t&rct=j&q

الفصل الخامس

علم نفس النـمو

الخصائص والنـماذج النظرية

تعريف علم نفس النمو:

علم نفس النمو هو فرع علم النفس الذي يهتم بدراسة التغيرات التي تطرأ على السلوك الأنساني من المهد – بل وقبلة – إلى اللحد.

وهذه التغيرات شاملة بمعنى إنها تحدث للكائن في كل الجوانب ، وأن كانت لا تحدث بسرعة واحدة أو بمعدل واحد في كل جانب من جوانب شخصية الفرد.

التغيرات التي تطرأ على السلوك الإنساني:

١) التغير في الحجم أو في الكم:

ويعنى أن التغير يشمل حجم الأعضاء أو كم الوحدات ، ففي الجانب الجسمي نجد أن حجم الجسم ككل يزيد ويكبر ، كما أن حجم كل عضو على حدة يزيد أيضا ، ينطبق هذا على الأعضاء الخارجية ، كما ينطبق على الأعضاء الداخلية كالقلب والمعدة والبنكرياس. كذلك يظهر هذا النوع من التغير في زيادة عدد الوحدات في بعض الجوانب مثل عدد الخطوات التي يستطيع الوليد أن يمشيها قبل أن يقع على الأرض عند تعلمه المشي، وعدد الكلمات الصحيحة التي ينطقها عند تعلمه الكلام.

٢) التغير في النسب:

لا يقتصر التغير في النمو على الحجم أو كم الوحدات وإنما يشمل أيضا النسبة التي يحدث بها التغير ، فالتغير لا يحدث بنسبة واحدة في كل الأعضاء، بل يحدث تغير في النسب بمعنى أن أجزاء في الجسم مثلا تنمو بنسبة أكبر مما تنمو أجزاء أخرى ، فالنسب الموجودة بين أعضاء جسم الطفل عند الميلاد لا تبقى كما هي مع النمو ، فالطفل يولد ورأسه تقارب ربع طول جسمه ، ولكنها عند الرشد لا تزيد عن الثمن.

٣) التغير من العام إلى الخاص:

التغيرات تسير أحيانا من العام إلى الخاص ومن المجمل إلى المفصل . كما تسير في الاتجاه المضاد أحيانا أخرى ، فالتغيرات تتجه من العام إلى

الخاص عندما يستجيب الكائن الحي للمواقف استجابة عامة بكليته ، ثم تبدأ أعضاء معينة أو وظائف خاصة في العمل ، فالطفل يحاول أن يميل بجسمه كله ليلتقط شيئا أمامه ثم يتعلم بعد ذلك كيف يحرك يديه فقط ، ويكون مشى الطفل في البداية حركة غير منتظمة لكل أجزاء جسمه وبعدها يأخذ شكلا متسقا لحركة اليدين والرجلين . والنمو لا يتجه من العام إلى الخاص فقط بل أن هناك حركة عكسية في الاتجاه المضاد تشملها عملية النمو . وهى تكوين وحدات اكبر أو سلوك أعم من الاستجابات الجزئية النوعية أو المتخصصة ، ويحدث ذلك عند تعميم استجابة الخوف من مثيرات معينة إلى كل المثيرات التي ترتبط بالمثيرات الأصلية.

٤) التغير كاختفاء خصائص قديمة وظهور خصائص جديدة:

التغير في النمو لا يقتصر على التغير في الحجم أو في النسبة ولكنة يشمل أيضا اختفاء خصائص قديمة وظهور خصائص جديدة ، ويحدث هذا عندما ينتقل الطفل من مرحلة من مراحل النمو إلى المرحلة التي تليها ، وتكون هذه الخاصية القديمة من خصائص المرحلة إلى انتقل منها الطفل ، ولذا تميل إلى التناقص حتى تختفي ، بينما تبدأ الخصائص الجديدة والتي تنتمي إلى المرحلة الجديدة التي انتقل إليها وتأخذ في الظهور. مثال ذلك ، ما يحدث عند انتقال الطفل من مرحلة الطفولة المتأخرة إلى مرحلة المراهقة ، ويبدو ذلك في ضمور الغدتين التيموسية والصنوبرية ، في أواخر مرحلة الطفولة المتأخرة ، وفى الوقت نفسه تبدأ الخصائص الجديدة في الظهور ممثلة في نضج الغدد الجنسية وبدئها للإفراز. ويعتبر بداية إفراز الغدد الجنسية ، وهو ظاهرة البلوغ الجنسي ، بداية مرحلة المراهقة.

موضوع علم نفس النمو:

النمو الإنساني ارض مشتركة لعدد من العلوم الإنسانية الاجتماعية والبيولوجية الفيزيائية، وتشمل علم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجية وعلم

الأجنة وعلم الوراثة وعلم الطب ، إلا أن علم النفس يقف بين هذه العلوم بتميزه الواضح في تناول هذه الظاهرة وأنشأ فرعا منة يختص بدراستها هو علم نفس النمو.

ولقد ظهر هذا العلم في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان تركيزه على فترات عمرية خاصة وظل على هذا النحو لعقود طويلة متتابعة وكانت الاهتمامات المبكرة مقتصرة على أطفال المدارس ، ثم أمتد الاهتمام إلى سنوات ما قبل المدرسة ، وبعد ذلك إلى سن المهد (الوليد والرضيع) ، فإلى مرحلة الجنين مرحلة ما قبل الولادة.

وبعد الحرب العالمية الأولى بقليل بدأت البحوث حول المراهقة في الظهور والذيوع ، وخلال فترة ما بين الحربين ظهرت بعض الدراسات حول الرشد المبكر، إلا أنها لم تتناول النمو في هذه المرحلة بالمعنى المعتاد ، بل ركزت على قضايا معينة مثل ذكاء الراشدين وسمات شخصياتهم.

ومنذ الحرب العالمية الثانية ازداد الاهتمام التدريجي بالرشد ، وخاصة مع زيادة الاهتمام بحركة تعليم الكبار ، أما الاهتمام بالمسنين فلم يظهر بشكل واضح إلا منذ مطلع الستينات من هذا القرن ، وكان السبب في ذلك الزيادة السريعة في عددهم ونسبتهم في الإحصاءات السكانية العامة ، وما تتطلب ذلك من دراسة لمشكلاتهم وتحديد أنواع الخدمات التي يجب أن توجه إليهم

ومن الدوافع الهامة التي وجهت البحث في علم نفس النمو الضرورات العملية ، والرغبة في حل المشكلات التي يعانى منها الأفراد في مرحلة عمرية معينة ، ، ومن ذلك أن بحوث الطفولة بدأت في أصلها للتغلب على الصعوبات التربوية والتعليمية لتلاميذ المدارس الابتدائية ثم توجهت إلى المشكلات المرتبطة بطرف تنشئة الأطفال على وجه العموم ، ووجه البحث في مرحلة المهد الرغبة في معرفة ما يتوافر لدى الوليد من استعدادات يولد مزوداً بها ، أما البحث في مرحلة الرشد فقد وجهه الدافع إلى دراسة المشكلات العملية المتصلة بالتوافق

الزواجى وأثر تهدم الأسرة على الطفل ، ثم بعد ذلك وجهه البحوث إلى مجال الشيخوخة.

أهداف علم نفس النمو:

يمكن القول أن لسيكولوجية النمو هدفين أساسين : أولهما الوصف الكامل والدقيق قدر الإمكان للعمليات النفسية عند الناس في مختلف أعمارهم واكتشاف خصائص التغير الذي يطرأ على هذه العمليات في كل عمر ، وثانيهما : تفسير التغيرات العمرية (الزمنية) في السلوك أي اكتشاف العوامل والقوى والتغيرات التي تحدد هذه التغيرات ، ثم أضيفت أهداف أخرى تتصل بالرعاية والمعاونة والتحكم والتنبؤ ، أو باختصار التدخل في التغيرات السلوكية.

١) وصف التغيرات السلوكية:

على الرغم من أن هدف الوصف هو أبسط أهداف العلم إلا أنة أكثرها أساسية ، فبدونه يعجز العلم عن التقدم إلى أهدافه الأخرى ، والوصف مهمتة الجوهرية ان يحقق الباحث فهما افضل للظاهرة موضع البحث ، ولذلك فالباحث فى علم نفس النمو علية ان يجيب أولاً على أسئلة هامة مثل : متى تبأ عملية نفسية معينة فى الظهور ؟ وما هى الخطوات التى تسير فيها سواء نحو التحسن أو التدهور؟ وكيف تؤلف مع غيرها من العمليات النفسية الأخرى أنماطا معينة من النمو ؟ مثال ذلك اننا جميعا نلاحظ تعلق الرضيع بامة وان الام تبادل طفلها هذا الشعور ، والسؤال هنا : متى يبدأ شعور التعلق فى الظهور ؟ وما هى مراحل تطورة ؟ وهل الطفل المتعلق بأمة تعلقا آمنا يكون أكثر قدرة على الاتصال بالغرباء أم أن هذة القدرة تكون أكبر لدى الطفل الأقل تعلقا بأمة ؟ هذة وغيرها اسئلة من النوع الوصفى.

ويجاب عن هذة الاسئلة بالبحث العلمى الذى يعتمد على الملاحظة ، أى من خلال مشاهدة الاطفال والاستماع اليهم ، وتسجيل ملاحظاتنا بدقة وموضوعية . ولا شك أن مما يعيننا على مزيد من الفهم أن ملاحظاتنا الوصفية

تتخذ فى الاغلب صورة النمط أو المتوالية ، وحالما يستطيع الباحث أن يصف اتجاهات نمائية معينة ويحدد موضع الطفل أو المراهق أو الراشد فيها فأنة يمكنة الوصول الى الاحكام الصحيحة حول معدل نموة ، وهكذا نجد أن هدف الوصف فى علم نفس النمو يمر بمرحلتين أساسيتين : أولاهما الوصف المفصل للحقائق النمائية ، وثانيهما ترتيب هذة الحقائق فى اتجاهات أو انماط وصفية ، وهذة الأنماط قد تكون متآنية فى مرحلة معينة ، أو متتابعة عبر المراحل العمرية المختلفة.

٢) تفسير التغيرات السلوكية:

الهدف الثانى لعلم نفس النمو هو التعمق فيما وراء الانماط السلوكية التى تقبل الملاحظة ، والبحث عن اسباب حدوثها أى هدف التفسير ، والتفسير يعين الباحث على تعليل الظواهر موضع البحث من خلال الاجابة على سؤال لماذا ؟ بينما الوصف يجيب على الشؤال : ماذا ؟ وكيف؟

ومن الاسئلة التفسيرية : لماذا يتخلف الطفل فى المشى أو يكون أكثر طلاقة فى الكلام ، أو أكثر قدرة على حل المشكلات المعقدة بتقدمة فى العمر؟ والى أى حد ترجع هذة التغيرات الى " الفطرة " التى تشمل فيما تشمل الخصائص البيولوجية والعوامل الوراثية ونضج الجهاز العصبى ، أو الى " الخبرة " أى التعلم واستثارة البيئة.

فمثلا اذا كان الاطفال المتقدمون فى الكلام فى عمر معين يختلفون وراثيا عن المتخلفين نسبيا فية نستنتج من هذا أن معدل التغير فى اليسر اللغوى يعتمد ولو جزئيا على الوراثة ، أما اذا كشفت البحوث عن أن الاطفال المتقدمين فى الكلام يلقون تشجيعا أكثر على انجازهم اللغوى ويمارسون الكلام اكثر من غيرهم فاننا نستنتج أن التحسن فى القدرة اللغوية الحادث مع التقدم فى العمر يمكن ان يرجع جزئيا على الأقل الى الزيادة فى الاستثارة البيئية.

وفى الأغلب نجد ان من الواجب علينا لتفسير ظواهر النمو أن نستخدم

المغارف المتراكمة فى ميادين كثيرة أخرى من علم النفس وغيرة من العلوم مثل نتائج البحوث فى مجالات التعلم والادراك والدافعية وعلم النفس الاجتماعى والوراثة وعلم وظائف الاعضاء والانثروبولوجيا.

٣) التدخل فى التغيرات السلوكية:

الهدف الثالث من اهداف الدراسة العلمية لنمو السلوك النسانى هو التدخل فى التغيرات السلوكية سعيا للتحكم فيها حتى يمكن ضبطها وتوجيهها والتنبؤ بها.

ولا يمكن ان يصل العلم إلى تحقيق هذا الهدف إلا بعد وصف جيد لظواهرة وتفسير دقيق صحيح لها من خلال تحديد العوامل المؤثرة فيها ، لنفرض أن البحث العلمى أكد لنا ان التاريخ التربوى الخاطىء للطفل يؤدى بة إلى أن يصبح بطيئا فى عملة المدرسى ، ثائرا متمردا فى علاقاتة مع الافراد ، أن هذا التفسير يفيد فى اغراض العلاج من خلال تصحيح نتائج الخبرات الخاطئة ، والتدريب على مهارات التعامل مع الآخرين ، وقد يتخذ ذلك صوراً عديدة لعل أهمها التربية التعويضية ، والتعلم العلاجى.

خصائص النمو الأنسانى:

حتى يتوجة فهمنا لطبيعة النمو الانسانى وجهه صحيحة نعرض فيما يلى الخصائص الجوهرية لهذة العملية الهامة:

١) النمو عملية تغير:

كل نمو فى جوهرة تغير ، ولكن ليس كل تغير يعد نمواً حقيقيا ، وعموما يمكن القول أن علم نفس النمو يهتم بالتغيرات السلوكية التى ترتبط ارتباطا منتظما بالعمر الزمنى . فإذا كانت هذة التغيرات تطرأ على النواحى البيولوجية

والفسيولوجية وتحدث فى بنية الجسم الانسانى ووظائف اعضاءة نتيجة للعوامل الوراثية (الفطرة) فى اغلب الأحيان ، فان هذة التغيرات تسمى نضجا Maturation . اما إذا كانت هذة التغيرات ترجع فى جوهرها الى آثار الظروف

البيئية (الخبرة) تسمى تعلماً . Learing وفى كلتا الحالتين ، النضج والتعلم قد تدل التغيرات على تحسن أو تدهور ، وعادة ما يكون التدهور فى الحالتين فى المراحل المتأخرة من العمر.

أما التغيرات غير النمائية فانها على العكس تعد نوعا من حالة الانتقال التى لا تتطلب ثورة أو تطوراً ، فالشخص قد يغير ملابسة إلا أن ذلك لا يعنى نمواً ، فتتابع الاحداث فى هذا المثال لا يتضمن وجود علاقة بين الحالة الراهنة للشخص وحالتة السابقة ، ومن السخف بل ومن العبث ، أن نفترض مثلاً أن ملابس الشخص التى كان يرتديها فى العام الماضى نمت بالتطور أو الثورة إلى ما يرتدية الآن.

وهناك خاصية أخيرة فى التغيرات النمائية أنها شبة دائمة باعتبارها نتاج كل من التعلم والنضج ، وفى هذا تختلف عن التغيرات المؤقتة أو العارضة أو الطارئة مثل حالات التعب أو النوم أو الوقوع تحت تأثير مخدر ، فكلها ألوان من التغير المؤقت فى السلوك ولكنها ليست نموا لأن هذة التغيرات جميعا تزول بزوال العوامل المؤثرة فيها وتعود الأحوال إلى ما كانت علية من قبل.

٢) النمو عملية منتظمة:

توجد أدلة تجريبية على ان تغيرات النمو تحدث بطريقة منتظمة ، على الأقل فى الظروف البيئية العادية ، ومن هذة الأدلة ما يتوافر من دراسة الاطفال المبتسرين (الذين يولدون بعد فترة حمل تقل عن ٣٨ أسبوعا) والذين يوضع الواحد منهم فى محضن يتشابة مع بيئة الرحم لاكتمال نموة كجنين ، فقد لوحظ انهم ينمون بيولوجيا وفسيولوجيا وعصبيا بنفس معدل نمو الأجنة الذين يبقون فى الرحم نفس الفترة الزمنية.

وتحدث تغيرات منتظمة مماثلة بعد الولادة ، وأشهر الأدلة على ذلك جاء من بحوث جيزل وزملائة الذين درسوا النمو الحركى للأطفال فى السنوات الاولى من حياتهم ، فقد لاحظوا الاطفال فى فترات منتظمة وفى ظروف مقننة

ووصفوا سلوكهم وصفا دقيقاً ووجدوا نمطا تتابعيا للنمو الحركى ، ومن أمثلة ذلك ، الاتجاة من اعلى الى أسفل ، والاتجاة من الوسط الى الأطراف ، كما تظهر خصائص الانتظام فى سلوك الحبو والوقوف والمشى واستخدام الايدى والاصابع والكلام ، هذة الالوان من السلوك تظهر فى معظم الاطفال بترتيب وتتابع يكاد يكون واحداً ، ففى نضج المهارات الحركية عند الاطفال نجد أن

الجلوس يسبق الحبو ، والحبو يسبق الوقوف ، والوقوف يسبق المشى وهكذا، فكل مرحلة تمهد الطريق للمرحلة التالية ، وتتتابع المراحل على نحو موحد.

٣) النمو عملية كلية:

إذا كان النمو عملية كلية فالعلاقات الموجودة بين جوانب النمو تسير فى اتجاة واحد سواء فى طور البناء أم فى طور الهدم ، وهو ما يمكننا من التنبؤ بمعدل النمو فى احد الجوانب إذا عرفنا معدلة فى جانب آخر لأن هناك تلازما فى معدل سرعة النمو فى الدورات المختلفة سرعة أو بطأ ، فإذا كان هناك طفل ينمو ذكاؤة بمعدل أعلى من المتوسط فيمكن التوقع بأن نموة الجسمى سيكون أعلى من المتوسط أيضاً ، والعكس صحيح أيضاً فقد يكون التأخر فى أحد المهارات الحركية كالمشى مثلا دليل على التأخر فى الذكاء.

٤) النمو عملية فردية:

يتسم النمو الانسانى بأن كل فرد ينمو بطريقتة وبمعدلة ، ومع ذلك فإن الموضوع يخضع للدراسة العلمية المنظمة ، فمن المعروف أن البحث العلمى يتناول حالات فردية من أى ظاهرة فيزيائية أو نفسية ، ثم يعمم من هذة الحالات الى الظواهر المماثلة ، إلا أن شرط التعميم العلمى الصحيح أن يكون عدد هذة الحالات عينة ممثلة للأصل الاحصائى الذى تنتسب الية ، وبالطبع فان هذا التعميم فى العلوم الانسانية يتم بدرجة من الثقة أقل منة فى العلوم الطبيعية وذلك بسبب طبيعة السلوك الانسانى الذى وهو موضوع البحث فى

الفئة الاولى من هذة العلوم.

والنمو الانسانى على وجه الخصوص خبرة فريدة ، ولهذا فإن ما يسمى القوانين السلوكية قد لا تطبق على كل فرد بسبب تعقد سلوك الانسان ، وتعقد البيئة التى يعيش فيها ، وتعقد التفاعل بينهما ، ومن المعلوم فى فلسفة العلم أن التعميم لا يقدم المعنى الكلى للقانون اذا لم يتضمن معالجة مفصلة لكل حالة من الحالات التى يصدق عليها ، ومعنى هذا أن علم نفس النمو لة الحق فى الوصول الى قوانينة وتعميماتة ، إلا أننا يبقى معنا الحق دائماً فى التعامل مع الانسان موضع البحث فية على انة كائن فريد ، ولعلنا بذلك نحقق التوازن بين المنحى العام والمنحى الفردى ، وهو ما لا يكاد يحققة أى فرع آخر من فروع علم النفس.

٥) النمو عملية فارقة:

على الرغم من أن كثيراً من المعلومات التى تتناولها بحوث النمو تشتق مما يسمى المعيير السلوكية ، إلا أننا يجب أن نحذر دائماً من تحويل هذة المعايير الى قيود . وهذا التفظ ضرورى وإلا وقع الناس فى خطأ فادح يتمثل فى اجبار أنفسهم واجبار الآخرين على الالتزام بما تحددة هذة المعايير ، ويدركونة بالطبع على أنة النمط (المثالى) للنمو . ومعنى ذلك أن ما يؤدية الناس على انة السلوك المعتاد أو المتوسط ، أو ما يؤدى بالفعل (وهو جوهر المفهوم الأساسى للمعيار) يتحول فى هذة الحالة ليصبح ما يجب أن يؤدى ، ولعل هذا هو سبب ما يشيع بين الناس من الاعتقاد فى وجود أوقات ومواعيد " ملائمة " لكل سلوك. وهكذا يصبح المعيار العمرى البسيط تقليداً اجتماعيا ، ويقع الناس أسرى الساعة الاجتماعية ، بها يحكمون على كل نشاط من الأنشطة العظمى فى حياتهم بأنة فى وقتة تماما أو أنة مبكر أو متأخر عنة ، يصدق هذا على دخول المدرسة أو أنهاء الدراسة أو الالتحاق بالعمل أو الزواج أو التقاعد مادام لكل ذلك معاييرة ، فحينما ينتهى الفرد من تعليمة الجامعى مثلا فى سن الثلاثين فإنة

يتصف بالتأخر حسب الساعة الإجتماعية ، بينما انجازة فى سن السابعة عشرة يجعلة مبكراً.

وتوجد بالطبع أسباب صحيحة لكثير من قيود العمر ، فمن المنطقى مثلا أن ينصح طبيب الولادة سيدة فى منتصف العمر بعدم الحمل ، كما ان من العبث أن نتوقع من طفل فى العاشرة من عمرة أن يقود السيارة ، إلا أن هناك الكثير من قيود العمر التى ليس لها معنى على الإطلاق فيما عدا أنها تمثل ما تعود الناس علية ، كأن تعتبرالعشرينات أنسب عمر للزواج فى المعيار الامريكى ، وهذة المجموعة الأخيرة من القيود هى التى نحذر منها حتى لا يقع النمو الإنسانى فى شرك " القولبة " والجمود بينما هو فى جوهرة مرن على أساس مسلمة الفروق الفردية التى تؤكد التنوع والأختلاف بين البشر.

٦) النمو عملية مستمرة:

بمعنى أن التغيرات التى تحدث للفرد فى مختلف جوانبة العضوية والعقلية لا تتوقف طوال حياتة ، ويغلب على هذة التغيرات طابع البناء فى المراحل الأولى من العمر. بينما يغلب عليها طابع الهدم فى المراحل الأخيرة منة ، والنمو بهذا المعنى سلسلة من الحلقات يؤدى اكتساب حلقة منها الى ظهور الحلقة التالية ، فاذا اخذنا النمو الحركى مثلا فاننا نجد أن الطفل يمر بالتطورات الآتية : إنتصاب الرأس ثم الجلوس فالحبو فالوقوف فالمشى والقفز والتسلق ، ولا بد أن تتم هذة العمليات بنفس الترتيب ، فلا يمكن أن يمشى الطفل قبل أن يقف ، ولا يمكن ان يجرى ويقفز قبل أن يتعلم المشى هكذا ، وإذا كان النمو مجموعة من الحلقات فهى حلقات متصلة فى سلسلة واحدة ، وهى سلسلة النمو أو دورة النمو.

النماذج النظرية للنمو الأنسانى:

النموذج النظرى هو أداة منهجية يستخدم لشرح وتفسير الظواهر والعلاقات القائمة بينها ، ويمدنا النموذج فى سبيل الشرح والتفسير بمصطلحات معينة

وبالأساس الذى يمكن تصنيف الظواهر على أساسة وبالمبدأ التفسيرى الذى يوضح طبيعة العلاقة بين الظواهر أو المتغيرات ، أن النموذج النظرى هو الوسيلة التى يمكننا من اخضاع ظواهر عالمنا للدراسة العملية ، عن طريق ترجمة هذة الظواهر الى متغيرات محددة يمكن التحقق منه ودراسة العلاقات بينها.

ويميل بعض الباحثين الى تصنيف النماذج النظرية السائدة فى مجال علم نفس النمو الى مجموعات أو فئات حسب أسس معينة يرونها جديرة بالاعتبار ، لأنها تزيد من الفهم لظاهرة التغير النمائى ، فالبعض يصنف النماذج النظرية حسب السعة أو الشمول ، فيكون لدينا النماذج الشاملة التى تحاول أن تشرح أو تفسر كل مظاهر السلوك تقريبا مثل نظرية التحليل النفسى ، وهناك النماذج الأقل شمولا وتركز على بعض الجوانب الأساسية فى السلوك مثل نظرية بياجية وتهتم بتفسير الجوانب المعرفية للسلوك أيضا نظرية اريكسون والتى تهتم بتفسير الجوانب الأجتماعية للسلوك.

نظرية التحليل النفسى (فرويد)

نظرية التحليل النفسى كما وضع أسسها وصاغها سيجموند فرويد ، نظرية يغلب عليها الطابع البيولوجى . فالطفل يولد وهو مزود بطاقة غريزية قوامها الجنس والعدوان ، وهى ما أطلق عليها فرويد أسم " اللبيدو Libido "بمعنى الطاقة ، وهذة الطاقة تدخل فى صدام محتم مع المجتمع ، وعلى أساس شكل الصدام ونتيجتة تتحدد صورة الشخصية فى المستقبل.

ويذهب فرويد إلى أن الطاقة الغريزية التى يولد الطفل مزوداً بها تمر بأدوار محددة فى حياتة ، والنضج البيولوجى هو الذى ينقل الطفل من دور الى آخر أو من مرحلة الى آخرى ولكن نوع وطبيعة المواقف التى يمر بها هى التى تحدد النتاج السيكولوجى لهذة المراحل ، كما أنها هى التى تحدد مدى إنتظام سير الطاقة فى خطها المرسوم سلفا أو تعثرها فى السير وتخلفها أو تخلف معظمها

فى مراحل معينة ، هذا التخلف الذى يطلق علية فرويد" التثبيت. "

ويرى فرويد أن التثبيت يعود بجانب العوامل الجبلية (الوراثية) الى عوامل ذات طبيعة تربوية إجتماعية وعلى رأس هذة العوامل الإشباع المسرف فى سنى المهد والطفولة المبكرة ، والذى يجعل الطفل لا يريد أن يترك هذا المستوى الذى ينعم فية بالاشباع والمتعة . ولكن النمو يتابع سيرة الى المرحلة التالية ، ولكن بعد أن يكون قد تخلف قدر كبير من الطاقة اللبيدية فى المرحلة التى حدث فيها التثبيت ، ومن عوامل التثبيت أيضا الاحباط الشديد الذى يجعل الطفل يجد صعوبة فى تخطى هذا المستوى الى المستوى التالى طلبا للاشباع الذى كان من المفروض أن يتلقاة فى هذة المرحلة ، كما أن التثبيت قد يحدث فى ظل الاشباع المسرف والاحباط الشديد لأنة كثيراً ما يكون التناوب بين الاشباع المسرف والاحباط الشديد هو العامل الحاسم وراء التثبيت.

وإذا لم يحدث تثبيت للطاقة اللبيدية فى أية مرحلة وواصلت سيرها ، فأن الطفل ينتقل من مرحلة سيكولوجية الى التى تليها ، ويستمد الطفل إشباعة لطاقتة الغريزية فى كل مرحلة خلال عضو معين من أعضاء جسمة ، ويسمى فرويد المراحل النفسية بأسم العضو الذى يستمد منة الطفل الإشباع فى مرحلة معينة.

مراحل النمو النفسى:

المرحلة الفمية المصية:

وتشمل العام الأول من حياة الطفل . وتتركز حياة الطفل فى هذة السن حول فمة ، ويأخذ لذتة من المص ، حيث يعمد الى وضع أصبعة أو جزءً من يدية فى فمة ومصة ، ويتمثل الاشباغ النموذجى فى هذة المرحلة فى مص ثدى الأم ، وحينما يغيب الثدى عنة يضع أصبعة فى فمة كبديل للثدى ، ويؤكد فرويد على أن هذة المرحلة هى مرحلة الإدماج القائمة على الأخذ.

المرحلة الفمية العضية:

وتشمل العام الثانى. ويتركز النشاط الغريزى حول الفم أيضا ، ولكن اللذة يحصل عليها هذة المرة من خلال العض وليس المص ، وذلك بسبب التوتر الناتج عن عملية التسنين ، فيحاول الطفل أن يعض كل ما يصل إلية ، وهنا يشير فرويد الى أول عملية احباط تحدث للفرد فى حياتة ، وذلك حينما يعمد الطفل الى عض ثدى الأم ، وما يترتب على ذلك من سحب الأم للثدى من فمة، أو عقابة ، مما يوقعة فى الصراع لأول مرة ، فهو يقف حائراً بين ميلة الى اشباع رغبتة فى العض وبين خوفة من عقاب الأم وغضبها والذى يتمثل لدية فى سحبها للثدى من فمة .

وهذة المرحلة هى مرحلة ادماج أيضا تقوم على الأخذ والإحتفاظ ، والطفل فى هذة المرحلة ثنائى العاطفة يحب ويكرة الموضوع (الشخص) الواحد فى نفس الوقت ، حسب ما ينالة من اشباع أو احباط على يد هذا الموضوع (الشخص).

المرحلة الأستية:

وتشمل العام الثالث ، حيث تنتقل منطقة الأشباع الشهوى من الفم الى الشرج ، ويأخذ الطفل لذتة من تهيج الغشاء الداخلى لفتحة الشرج عند عملية الاخراج ، ويمكن أن يعبر الطفل عن موقفة أو اتجاهه إزاء الأخرين بالإحتفاظ بالبراز أو تفريغة فى الوقت أو المكان غير المناسبين ، والطابع السائد للسلوك فى هذة المرحلة هو العطاء ، ويغلب على مشاعر الطفل المشاعر الثنائية أيضا، كما فى المرحلة السابقة.

المرحلة القضيبية:

وتشمل العامين الرابع والخامس ، وفيها ينتقل مركز الاشباع من الشرج الى الأعضاء التناسلية ، ويحصل الطفل على لذتة من اللعب فى أعضائة التناسلية، ويمر الطفل فى هذة المرحلة بالمركب الأوديبى الشهير وهو ميل الطفل الذكر الى أمة ، والنظر الى أبية كمنافس لة فى حب الأم ، وميل الطفلة

الأنثى الى الوالد وشعورها بالغيرة من الأم.

وفى الظروف الطبيعية للنمو ينتهى الموقف الأوديبى بتوحد الطفل مع والدة من نفس الجنس . والتوحد مفهوم يشير الى أن الفرد يسلك أحيانا ، وكأن سلوك شخص آخر هو سلوكة هو ، ويتضمن التوحد إعجاب المتوحد بالمتوحَد . واتخاذة نموذجا يتحد بة ، وتتم عملية التوحد على المستوى اللاشعورى . فيبدأ الطفل فى تشرب قيم الوالد الثقافية ، وهى القيم السائدة فى المجتمع ، كما تبدأ البنت فى التحول بعواطفها نحو الأم ، وإذا حدث ما يؤثر على سير النمو ، كما يحدث خلال ظاهرة التثبيت ، فأن علاقة الطفل بأمة تظل قوية ، وتتعطل عملية التوحد مع الوالد ، كما تستمر روابط الطفلة العاطفية بوالدها، أو تضطرب علاقة الطفل بوالدية معا . ويترتب على ذلك إصطرابات فى الشخصية والسلوك فيما يعد.

مرحلة الكمون:

وبتصفية المركب الأوديبى ، والتوحد مع الوالد مع نفس الجنس يدخل الطفل فى مرحلة ينصرف فيها عن ذاتة الى الأنشغال بمن حولة وبما حولة . ويحدث تقدم كبير فى النمو العقلى والانفعالى والاجتماعى فى هذة المرحلة التى تمتد من سن السادسة حتى حدوث البلوغ الجنسى فى الثانية عشر للبنات والثالثة عشر للبنين ، ويكون الطفل حريصا فى هذة المرحلة على طاعة الكبار والإمتثال لأوامرهم ونواهيهم وراغبا فى الحصول على رضائهم وتقديرهم . ولذا فهذة المرحلة مرحلة هدوء من الناحية الإنفعالية.

المرحلة الجنسية الراشدة:

وفى هذا المستوى تأخذ الميول الجنسية الشكل النهائى لها . وهو الشكل الذى سيستمر فى النضج . ويحصل الفرد السوى على لذتة من الاتصال الجنسى الطبيعى مع فردٍ راشد من أفراد الجنس الآخر . حيث تتكامل فى هذا السلوك الميول الفمية والشرجية ، وتتشارك فى بلورة الجنسية السوية الراشدة.

وعلية فإن الفرد السوى هو من يحصل على إشباع مناسب فى كل مرحلة نمائية ، أما إذا تعطلت مسيرة النمو كما يحدث فى بعض الحالات فأنة قد يترتب علية حدوث ما أسماة فرويد " عملية التثبيت " ويكون الفرد أميل الى النكوص الى المرحلة التى حدث فيها التثبيت ، والنكوص الى مرحلة معينة يعنى إتيان أساليب سلوكية تتناسب مع هذة المرحلة.

مراحل النمو النفسى الاجتماعى:

مرحلة الثقة مقابل عدم الثقة (منذ الميلاد حتى السنة الثانية):

إن الاتجاة النفسي الاجتماعي الذي على الوليد تعلمة هو أنة يستطيع إن يثق فى العالم . وينمى هذه الثقة الاتساق في الخبرة والاستمرارية والمماثلة في إشباع حاجاتة الأساسية عن طريق الوالدين ، فإذا أشبعت هذه الحاجات وإذا عبر الوالدان نحوه عن عاطفة حقيقية وحب فان الطفل يعتقد إن عالمة آمن يمكن الوثوق به ، أما إذا كانت الرعاية الوالدية قاصرة وغير متسقة أو سلبية فإن الأطفال سوف يتعاملون مع العالم بخزف وشك.

مرحلة الاستقلال مقابل الشك (٣ سنوات):

وبعد أن يتعلم الاطفال أن يثقوا فى الوالدين (أو لا يثقون فيهما) ، ينبغى ان يحققوا قدراً من الاستقلال ، فإذا أتيح لهم الحبو وشجعوا على ان يعملوا ما يقدرون علية بمعدلهم وبطريقتهم مع اشراف حانى من الوالدين والمربين فانهم ينمون احساسا بالاستقلال الذاتى ، أما إذا لم يصبر الوالدان ، وقاما بكثير من الاعمال نيابة عن طفل الثالثة فانهما يشككان فى قدرتة على التعامل مع بيئتة ، وفضلا عن ذلك ، فانة ينبغى أن يتجنب الوالدان إخجال الطفل عن السلوك غير المقبول إذ يحتمل أن يسهم هذا فى تنمية مشاعر تشككة فى نفسة.

مرحلة المبادأة مقابل الخجل (٤ –٥ سنوات):

ان قدرة الطفل على المشاركة فى كثير من الانشطة الجسمية وفى استخدام اللغة يعد المسرح للمبادأة والتى تضيف الى الاستقلال الذاتى خاصية القيام

بالفعل والتخطيط والمعالجة ذلك أن الطفل يكون نشطا ومتحركا ، واذا اتيح لطفل الرابعة والخامسة الحرية للاكتشاف والارتياد والتجريب واذا اجاب الوالدان والمعلمون عن اسئلة الطفل فانهم يشجعون اتجاهاتة نحو المبادأة ، أما أذا قيد الأطفال فى هذا العمر وأشعروا بأن أنشطتهم وأسئلتهم لا معنى لها ومضايقة فإنهم سوف يشعرون بالإثم فيما يفعلون على نحو مستقل.

الاجتهاد مقابل النقص (٦ –١٢ سنة):

يلتحق الطفل بالمدرسة فى مرحلة من نموة ويسيطر على سلوكة حب الأستطلاع والأداء ، إنة يتعلم الآن كيف يحصل على التقدير يصنع الأشياء بحيث ينمى احساسا بالجد والاجتهاد . والخطر فى هذة المرحلة أن يخبر الطفل مشاعر النقص والدونية وإذا شجع الطفل على صنع الأشياء وإتمام الأعمال ، وأثنى علية لمحاولاتة يشعر بالأجتهاد والأنجاز . وإذا باءت جهود الطفل بالأخفاق أو إذا عوملت على أنها مضايقة ومقلقة ، يشعر بالنقص والقصور.

الهوية مقابل تميع الهوية (١٢ – ١٨ سنة):

ان الشباب يتقدم نحو الاستقلال عن الوالدين وتحقيق النضج الجسمى ، وهم يهتمون بنوع الأشخاص الذين يصيرون إلية . أن الهدف فى هذة المرحلة هو تنمية هوية الذات ، أى أن الفرد يثق فى أستمرارية شخصيتة واستقرارها وتماثلها ، والخطر الذى يتعرض لة الشاب فى هذة المرحلة هو الخلط فى الدور، وخاصة التشكك فى هويتة الجنسية والمهنية . وإذا نجح المراهقون ، كما ينعكس ذلك فى استجابات الاخرين ، فى تحقيق تكامل فى ادوارهم فى المواقف المختلفة بحيث يخبرون الاستمرارية فى ادراك الذات ، فإن الهوية تنمو. وإذا عجزوا عن تحقيق احساس بالاستقرار فى الجونب المختلفة من حياتهم ينتج عن ذلك الخلط والارتباك.

مرحلة الألفة مقابل العزلة (١٨ – ٣٥ سنة):

لكى يخبر الفرد نموا مشبعا ومرضيا فى هذة المرحلة فإنة يحتاج إلى تكوين

علاقة حميمة بشخص آخر ، والأخفاق فى عمل هذا يؤدى الى احساس بالعزلة.

مرحلة الأنتاج مقابل الركود (٣٥ –٦٠ سنة):

أى أن يهتم الفرد بارشاد وتوجية الجيل القادم وترسيخ اقدامة ، والذين يعجزون عن الاندماج فى عملية التوجية يصبحون ضحايا الانغماس فى الذات والركود.

مرحلة التكامل مقابل اليأس (٦٠ سنة الى الموت):

التكامل هو تقبل الفرد لدورة حياتة ، باعتبارها هى الدورة المناسبة لة بالضرورة ولم يكن لها بديل . واليأس تعبير عن أن الزمن الآن قصير لا يسمح بالبدء فى حياة جديدة وتجريب طرق بديلة لتحقيق التكامل. [١]

المراجع

١) بدر الدين عامود، علم النفس في القرن العشرين دراسة (الجزء الأول)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص ص ٣٤٣– ٣٦١.

الفصل السادس
مراحل النمو البشري

مفهوم النمو:

يتعرض الكائن الحي للكثير من التغيرات والتطورات التي تلحقه، فالطفل يكون جنيناً، فوليداً، فرضيعاً، فطفلاً، فمراهقاً، فشاباً، فرجلاً، فشيخاً، فهرماً.

وتحدث الكثير من التغيرات في المراحل الاولى من الحياة تتجه نحو تحقيق غرض ضمني غير واضح في ذهن الكائن الحي، وهو النضج والبناء، على حين تعتبر تلك التغيرات التي تحدث في أدوار متعاقبة من حياته – وخاصه في طوري الشيخوخة والهرم – من النوع الهدام الذي ينهي الحياة.

ونقصد بالتطور والنمو تلك التغيرات الانشائية، البنائية التي تسير بالكائن الحي إلى الأمام حتى ينضج، وكلمه التطور – النمو– في معناها الخاص الضيق، تتضمن التغيرات الجسدية والبدنية، من حيث الطول والوزن والحجم، نتيجه التفاعلات الكيماوية التي تحدث في الجسم، لكن معناها العام يشمل بالإضافة إلى ما سبق، التغير في السلوك والمهارات نتيجة نشاط الإنسان، والخبرات التي يكتسبها عند استعمال عضلاته وأعصابه وحواسه وباقي أعضاء جسمه، ويتضمن هذا المعنى كذلك، التغيرات التي تطرأ على النواحي العقلية والانفعالية والاجتماعية والحسية والحركية.

في البدايه وحتى نستطيع فهم تطور الطفل بشكل صحيح لا بد من تتبع المراحل التي يمر بها، والتي ترجع بنا إلى مرحله ما قبل الولادة، لارتباط هذه المرحلة ارتباطاً وثيقاً بمرحلة ما بعد الولادة.

يعد العمر الزمني مقياساً رئيسياً للنمو وفي تحديد المراحل، فالعمر الزمني من اكثر المقاييس نفعاً من الناحية النفسية التطبيقية، فجميع المؤسسات التربوية والتعليمية تعتمد اعتماداً أساسياً على العمر الزمني.

وقد أوضحت الدراسات أن تحديد السن غرضاً أساسياً يُستند عليه عند معالجة المشكلات النمائية والتربوية والاجتماعية المتعلقة بالنشاط العقلي أو

السلوك الحركي أو التعبير الانفعالي.

العوامل المؤثره على النمو البشري :

في المرحلة الأولى:

منذ لحظه الإخصاب وحتى ٢٨٠ يوماً.

المرحله الثانية:

منذ الميلاد وحتى نهاية العام الثاني.

• لا تقل المرحلة الأولى أهمية عن أي مرحلة قد تأتي لاحقاً، بل قد تكون هذه من أهم المراحل، والتي قد يتعدى تاثيرها إلى مراحل متأخرة جداً من حياة الطفل. ففي الرحم يتشكل الطفل ويكتسب الخصائص الوراثية من الآباء والأجداد.

وقد يرث الطفل من الآباء والأجداد مايلي:-

الشكل العام للجسم:

كالطول، القصر، لون البشره، لون العينين وغيره من المبنى العام للجسم.

الأمراض:

تكون الوراثة مسؤولة عن تكرار ظهور بعض الأمراض في عائلات معينة بنسبة معينة أكثر من غيرها وخاصة في العائلات التي يكثر فيها زواج الأقارب.

وقد تتعرض الأم لأمراض معينة كالحمى التي تؤدي إلى الضعف العقلي عند الطفل، وسوء التغذية يؤدي إلى ميلاد الطفل ضعيفاً هزيلاً، ومرض السكر يؤدي إلى إصابة الجنين ببعض الاضطرابات الهرمونية، وقد اختلف العديد من الباحثين حول مسالة أيهما أكثر تاثيراً على النمو: الوراثة أم البيئة؟.

وحول الإجابة على هذه المسألة، توصلت بعض الدراسات إلى أن النمو الإنساني يعتمد على العوامل الوراثية أكثر من العوامل البيئية، بينما أوضحت دراسات أخرى إلى أن النمو الإنساني يعتمد على العوامل البيئية أكثر من

العوامل الوراثية. أما الدراسات التجريبية الحديثة تؤكد على أهمية التفاعل بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية إذ لا يمكن بحالٍ من الأحوال فصل أحدهما عن الآخر.

تختلف سرعة النمو الجسمي باختلاف عمر الطفل، والتطورات تحدث في حياتنا بشكل مستمر، فعند الأطفال تبدأ هذه الدورة سريعاً ثم تزداد سرعة إلى حد كبير، ثم تعود إلى سرعتها عند المراهقة، ثم تتعادل قوتها عند النضج وبعد ذلك تتراجع عند الشيخوخه.

فمثلا : النمو الطولي يزداد في سرعته في النصف الأول من السنة ويصبح بطيئاً في النصف الثاني بينما النمو الوزني يزداد في سرعته في النصف الثاني من السنة الأولى.

مظاهر النمو الجسمي:

١- وزن الطفل:

يزن الطفل عادة عند ولادته ٣٢٥٠ جرام ، لكن الطفل يفقد في أيامه الأولى كثيراً من وزنه، لأنه يطرح من جسمه بخار الماء والبول والبراز، ولا يتناول الا كميات قليلة من الغذاء في هذه الأيام الأولى، ولكن سرعان ما يستعيد وزنه في العشر أيام الأولى، ثم يبدأ وزنه بالزيادة بمعدل ٢٠٠ جرام أسبوعياً خلال الستة أشهر الأولى. ويزيد وزنه خلال الستة أشهر الثانية بمعدل ١٠٠ جرام أسبوعياً، وفي نهاية السنة الثانية من عمر الطفل، يزيد وزنه بمعدل ٢,٥ كجم تقريباً عن وزنه في نهاية السنة.

٢- طول الطفل:

يولد الطفل وطوله يتراوح بين ٤٧-٥٠ سم، يصل في نهاية العام الأول إلى ما يقرب ٧٤سم في نهاية العام الثاني يصل طول الطفل إلى ٨٤ سم.

وتختلف معايير الطول باختلاف عوامل الوراثة والبيئة، وباختلاف الفروق الجنسية بين الذكور والإناث حيث يزداد متوسط طول البنين عن البنات

حتى المراهقة، ثم يسبق طول البنات طول البنين خلال المراهقة، ثم تعتدل النسبه كما كانت من قبل وتصبح الأسبقية للبنين.

٣- الحرارة:

تكون حراره الطفل بين ٣٧,٥ و٣٨ درجة مئوية، ثم تهبط وتصبح ٣٧ ولا تختلف إلا قليلاً في الصباح والمساء، ولكن أقل طارىء يجعلها تتبدل تبدلاً محسوساً فقد تصعد حتى ٣٩ أو تهبط لتصل الى ٣٥.

٤- النبض:

يختلف نبض الطفل في الأيام الأولى من حياته بين ١٣٠-١٥٠ في الدقيقة الواحدة، وهذا العدد يهبط شيئاً فشيئاً بالنسبة للسن حتى يصبح ٧٠-٨٠.

٥- التنفس:

من المعلوم ان الكهل يتنفس من ١٦-١٨ مرة في الدقيقة، أما الطفل فإن تنفسه أسرع بكثير من الكهل حتى أنه قد يصل إلى ثلاثة أضعافه، فيجري في الدقيقة ٥٠حركه تنفسيه، لكن هذا النهج التنفسي يبدأ بالهبوط تدريجياً حتى يصل إلى مرحلته الطبيعية كلما تقدم الطفل في العمر.

٦- الهيكل العظمى:

عظام الطفل غضروفية لينه ومرنه، وبمرور الزمن تتحول إلى عظام أكثر صلابة بسبب ترسيب المواد المعدنية (الكالسيوم،الفوسفور)، هذا وقبل أن تنتهي السنة الأولى تكون قد نمت ٣ عظام من أصل ٢٨ عظمة باليد والرسغ، كذلك جمجمه الطفل يكون بها ٦ مواضع طريه (اليافوخ) تتصلب تدريجياً. ويمكن جس عظام الجمجمة بسهولة ، أهمها اليافوخ الكبير الموجود فوق الجبهة، وعلى كل والده أن تعرف كيف تجس هذه اليوافيخ بين الحين والآخر،لكي تراقب حسن نمو طفلها وحالته الصحية حيث أن التوتر الشديد فيها ينبئ عن مرضه كذلك انخفاضها بشده، ويتفاوت الأطفال من حيث معدلات التصلب والنمو العظمي بالنسبه للجنس حيث يتفوق البنات على البنين في معدل النمو العظمي منذ

الولادة وبتقدم العمر، كذلك تؤثر العوامل الوراثيه تاثيراً واضحاً في معدل النمو العظمي وكذلك المرض وسوء التغذية وأنواع الحساسية.

٧- الأجهزة العصبية-العضلية:

في السنه الأولى يكون الجهاز العصبي لم ينضج بعد حيث توجد الألياف العصبيه غير الناضجة في حزم.

أما بالنسبه للعضلات : فتكون عضلات الطفل صغيره تتاثر لأقل مجهود ، ولا يستطيع الطفل أن يسيطر تماماً على عضلاته، هذا وتنمو المجموعات العضليه بمعدلات متفاوته فالعضلات القريبه من الرأس والرقبه تنمو مبكراً من العضلات الموجوده بالأطراف السفلى.

في السنه الثانية: بالنسبه للجهاز العصبي يزداد تعقيداً وتمايزاً وتفصيلاً حيث تتعزل الألياف العصبية بعضها عن بعض وينمو لكل منها غمد دهني واقي .

أما بالنسبة لعضلات الطفل فإنها تزداد قوة ويصبح الطفل قادراً على القيام بحركات جديدة أكثر دقة وذلك بفضل نمو الجهاز العصبي.

٨- الأسنان:

تبدأ الأسنان بالظهور في الشهر السابع أو الثامن، وفي نهاية السنة يبلغ عدد الأسنان حوالى ٦ ، أربعه منها في الفك العلوي واثنتين في الفك السفلي. وفي السنة الثانية تظهر معظم الأسنان اللبنيه تكون قد ظهرت حيث يبلغ عددها في نهاية السنة الثانية ما يقارب ١٦ سناً.

جدول لمواعيد الأسنان المؤقتة:

العمر بالأشهر	ظهور الأسنان المؤقتة أو اللبنية
(٦-٩ شهور)	يبدأ ظهور الاسنان قاطعان أوسطان أسفلان.
(٩-١٢شهر)	٤ قواطع علوية.
(١٢-١٨شهر)	قاطعان جانبيان أسفلان.
(١٥-١٨ شهر)	٤ أضراس أمامية.

(١٨-٢٤شهر)   ٤ أنياب.

(٢٤-٣٠شهر)   ٤ أضراس خلفية.

النمو الحركي :

السنه الأولى:

نمو الطفل – الشهر الأول

حركة الرأس و الجسم

-إذا لم تسند الرأس فإنها تتأرجح إما إلى الامام او إلى الخلف.

-عند وضع الطفل على بطنه يحاول ان يدير رأسه ليبعد انفه عن السرير وقد يحاول ان يرفع رأسه لوهلة.

حركة اليدين

عادة يحافظ على الكفين منقبضتين

الأصوات المسموعة

إلى جانب البكاء يمكن ان يأتي الطفل ببعض الأصوات من الحلق

– يسمع وينفعل للأصوات العالية بأن (ينتفض)

التطور العقلي والإدراك الذهني:

– خلال معظم فترات اليقظة تكون عيناه تائهين يغلق جفن العين امام الضوء.

– قد ياتي بحركات متوافقة للعين جانبيه متابعة ضوءا او شيئا مرتبا.

– يمكن ان يتابع لعبة متحركة من جانب جسمه إلى منتصف جسمه ولكى يتم هذا التتابع يجب ان تمر في مدار رؤيته فهو لن يبحث عنها إذا ابتعدت عن هذا المدار.

– يهدأ عند حمله يبكي حين يحتاج إلى مساعدة.

– يثبت نظره على وجه الأم كاستجابة لابتسامتها.

– ديخال أن يبتسم للوجه او الصوت قد يبدأ في التعرف على صوت الأبوين.

تقسيم مراحل النمو :

تنقسم مراحل النمو البشري إلى:

١- مرحلة التكوين.

٢- مرحلة الطفولة.

٣- مرحلة المراهقة.

٤- مرحلة البلوغ.

٥- مرحلة الشيخوخة.

* **مرحلة التكوين** : تتم في هذه المرحلة تكوين الصفات الجسمية للإنسان مثل (الأعضاء ، العقل ... الخ) .

* مرحلة الطفولة : يكتسب الإنسان من المؤثرات الخارجية بعض الخصائص المساعدة في عملية نموه.

* **مرحلة المراهقة** : تسمى أيضا المرحلة الحرجة لأن الإنسان فيها يتعرض للعديد من الخصائص النمائية والعقلية الكثيرة التي تحدد مستوى النمو لديه.

* **مرحلة البلوغ** : في هذه المرحلة تكتمل لدى الإنسان الخصائص العقلية بحيث يصبح قادراً على تحديد النهج الذي سيسلكه في حياته.

* **مرحلة الشيخوخة** : الإنسان في هذه المرحلة تبدأ الأعضاء بعدم القدرة الكافية للقيام بالوظائف الفيسولوجية ، وتقل الثقة بالنفس والاعتماد الكلي على نفسة (أي يصبح شخص اتكالي) وتزيد احتمالية اصابته بالأمراض بالإضافة إلى المشاكل النفسية . ... الخ. [١]

مراحل النمو بشري

وتشمل على أربعة مراحل صنفها علماء نفس النمو لتسهيل الدراسة وهي :-

أولا : مرحلة الطفولة :

وتشمل حركة النمو في مختلف أبعاده في التكوين والنمو والتطور خلال اثني عشر سنة وتتميز بأربع مراحل جزئية هي :-

أ- مرحلة ماقبل الميلاد (المرحلة الجنينية): وتبدأ من لحظة التكوين وتنتهي بالولادة .

ب- مرحلة المهد (الرضاعة): وتبدأ من الميلاد وتنتهي بنهاية السنة الثانية.

ج- مرحلة الطفولة المبكرة: تبدأ من العام الثالث وتنتهي بنهاية السنة الخامسة.

د- مرحلة الطفولة المتأخرة: وتبدأ من السنة الثالثة حتى المراهق.

ثانياً : مرحلة المراهقة :

وتشمل حركة النمو وتطور الفرد ما بين الطفولة والرشد والمشكلات التي يواجهها وتفاعله مع البيئة وتشمل ثلاث مراحل هي :-

أ- مرحلة المراهقة المبكرة : تبدأ من السنة الثانية عشر حتى نهاية الرابعة عشر عند البنت وعند الولد من بداية الثالثة عشر حتى نهاية السادسة عشر.

ب- مرحلة المراهقة الوسطى : وتكون من بداية الخامسة عشر حتى نهاية السابعة عشر عند البنت ومن بداية السابعة عشر حتى نهاية الثامنة عشر عند الولد.

ج- مرحلة المراهقة المتأخرة : وتكون من بداية الثامنة عشر وتستمر حتى نهاية العشرين عند البنت ومن بداية التاسعة عشر حتى نهاية العشرين عند الولد.

ثالثاً : مرحلة الرشد :

ويظهر على حركة النمو التكويني والوظيفي النضج وقلة السرعة وتكون على ثلاث مراحل هي :-

أ- مرحلة الرشد المبكرة : وتقع بين (٢١ – نهاية ٣٩ سنة من العمر)

ب-مرحلة الرشد الوسطى : وتقع بين (٤٠ – نهاية ٥٩ سنة من العمر)

ج – مرحلة الرشد المتأخرة : وتبدأ من (٦٠ – نهاية ٦٥ سنة من العمر)

رابعاً : مرحلة الشيخوخة :

وتكون بدايتها غالباً في نهاية الخامسة والستين ، ويستمر تناقص القدرات الجسمية ووظائف الحواس ويحصل فيها الوهن والهِرم ثم الانحدار وأخيراً الموت.

علم نفس النمو Developmental Psychology

يعرف علم النفس بأنه : العلم الذي يهتم بدراسة السلوك .

والسلوك هو (أي نشاط جسمي أو عقلي أو انفعالي أو اجتماعي).

ويعرف علم نفس النمو بأنه : فرع من فروع علم النفس الذي يهتم بدراسة مظاهر النمو االبشري من مرحلة ماقبل الميلاد حتى الشيخوخة .

ويعرف أيضا : العلم الذي يهتم بدراسة مراحل النمو المختلفة للإنسان بمظاهرها الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية .

وان موضوع هذا العلم هو: دراسة سلوك الأطفال والمراهقين والراشدين والشيوخ.

أهمية علم نفس النمو : Importance of Developmental Psychology

وتتلخص أهميته بما يأتي :

١- يزيد من معرفتنا للطبيعة الإنسانية وعلاقة الإنسان مع بيئته .

٢- يحدد معايير النمو في كافة مظاهره وخلال مراحله المختلفة .

٣- يزيد من قدرتنا في توجيه الأطفال والمراهقين والراشدين والشيوخ .

٤- يساعد أخصائيِّ علم النفس الإرشادي والتربوي في مساعدة الأطفال والمراهقين .

٥- يساعد المربين في التعرف على خصائص نمو الأطفال والمراهقين ووضع المناهج المناسبة لنموهم واقتراح الطرائق التعليمية المناسبة لهم .

٦- أن فهم النمو العقلي والعمليات العقلية يؤدي إلى أفضل طرائق التربية والتعليم .

٧- يساعد الوالدين في تعرف خصائص أطفالهم ومراهقيهم مما يعينهم في إتباع أفضل أساليب التنشئة والتربية .

٨- يساعد الفرد في فهم مستوى نموه وطبيعة المرحلة التي يعيشها وفي أن يحيا بأفضل وأكمل صورة ممكنة .

نظرة تاريخية لتطور علم نفس النمو :

ظهرت أولى المحاولات لهذا العلم عند الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) الذي تكلم عن مبادئ نمو الأطفال في تقييمه لجمهوريته واهتم (أرسطو) بدراسة النمو الجنيني للحيوانات ووصف مراحل نمو المراهق .

وورد عند العرب أوصاف لنمو الإنسان تبدأ بـ (الجنين ، الوليد ، الفطيم ، الدارج ، الخماس ،المثغور ، المتفرد ، الناشئ ، اليافع) ووردت إشارات عديدة في القران الكريم إلى مراحل نمو الإنسان منها الاية (٥) من سورة الحج .

وأكد الإمام علي (ع) على مبادئ عديدة في التعامل مع الأطفال والمراهقين في (نهج البلاغة) ، وجاءت تعاليم أئمة أهل البيت (ع) في التأكيد على مراعاة الجوانب الأخلاقية والتربوية في عمليات نمو الأطفال والمراهقين .

وذكر (جون لوك) في القرن السابع عشر العديد من عادات الطفل واشتهر بمقولته :" الطفل يولد صفحة بيضاء، يفعل المربي فيها ما يشاء " وكتب (روسو) عن إعطاء الحرية المطلقة في تربية الطفل ، وقدم (فروبل) أراء عن استمرار النمو ، وطرح العالم (محمد مهدي النراقي) ، في القرن التاسع عشر نظرية في النمو الأخلاقي للأطفال والمراهقين ، وقد ســـــاهم عالم البايولوجيا (دارون) في ١٨٧٧م ، في نشر تحليل دقيق لتاريخ طفله الأول ، وســاهم (ستانلي هول) في نشر دراسات عن الأطفال والمراهقين، ويعد مؤسس علم نفس النمو الحديث .

وفي عام ١٩٠٤ طور(بينيه) مقياسا لذكاء الأطفال ، وساهم (برير) في شرح نمو الشعور والذكاء في كتابه (عقل الطفل) وفي ١٩١٤ ألف (ستيرن) كتاباً في سيكولوجية الطفولة المبكرة ، وذهب (فرويد) رائد مدرسة التحليل النفسي إلى أن خبرات الطفل في السنوات الخمس الأولى هي التي تحدد سلوكه المستقبلي .

وقدم (بياجيه) نظرية في النمو العقلي ونشر (ترمان) في ١٩٣٠ دراسات رائدة عن الأطفال والمراهقين الموهوبين ، ثم برز بعده علماء كثيرون منهم جيزل ، جودانف ، ليفين... وغيرهم .

معنى النمو : Growth

النمو بمعناه البيولوجي يعني :الزيادة في حجم الكائن الحي وكتلته .

أما بمعناه النفسي يعني : التغيرات الجسمية والفسيولوجية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي يمر بها الفرد في مراحله المختلفة .

ومن أهم عناصر النمو التغيرات التخصصية للأعضاء ووظائفها ويتجه النمو نحو النضج .

والنضج : هو عملية التغير في عضو معين وصولا إلى مرحلة الاستعداد الوظيفي .

مظاهر النمو البشري:

وللنمو البشري مظهران رئيسان هما :

١- دراسة النمو العضوي (التكويني) : ويشمل دراسة النمو الجسمي من حيث صفات الجسم كالطول و الوزن وغيرها .
٢- النمو الوظيفي : ويشمل نمو الوظيفة النفسية والعقلية والانفعالية والاجتماعية .

القوانين والمبادئ العامة للنمو البشري:

توصلت الدراسات إلى العديد من القوانين والمبادئ العامة للنمو ، وأهمها ما يأتي :-

١- النمو عمليه مستمرة متدرجة تتضمن نواحي التغير الكمي والنوعي :

ويعني أن النمو عمليه دائمة متصلة منذ بدء الحمل حتى تمام النضج وأن كل مرحله من مراحل النمو تتوقف على ما قبلها ولا توجد ثغرات أو وقفات في النمو ولكن يوجد نمو كامن ونمو ظاهر ونمو سريع وآخر بطيء.

٢- النمو يسير في مراحل : ويعني أن النمو يسير في مراحل تتداخل مع بعضها البعض حتى ليصعب التميز بين نهاية المرحلة وبداية المرحلة التي

تليها الا أن الفروق تتضح في منتصف المرحلة عن المرحلة السابقة واللاحقة لها .

٣- كل مرحله لها سمات خاصة ومظاهر مميزة :

تتميز كل مرحله من نمو الإنسان بأنها لها سماتها الخاصة بها فمثلا لعب الأطفال في الطفولة المبكرة يتميز بخاصية وتنظيم يختلف عن اللعب في الطفولة المتأخرة وذلك تبعا للمرحلة النمائية التي يمر بها الطفل .

٤- سرعة النمو ليست ثابتة :

يسير النمو بسرعة تعتبر ليست على وتيرة واحدة ويكون النمو في مرحلة ماقبل الميلاد أسرع ما يكون ثم يبطئ نسبيا ولكن يبقى سريعا في مرحلة المهد الا أنه في الطفولة المتأخرة يبطئ ثم يسرع في بداية المراهقة ويبطئ بعدها .

٥- مظاهر النمو تسير بسرع مختلفة :

لكل مظهر من مظاهر النمو سرعته الخاصة به ولا تنمو أجزاء الجسم بسرعة واحدة ولا تنمو جميع الوظائف العقلية والانفعالية والحسية بسرعة واحدة.

٦- النمو يتأثر بالظروف الداخلية والخارجية:

من الظروف الداخلية المؤثرة في النمو الوراثة وإفرازات الغدد ومن الظروف الخارجية المؤثرة التغذية ، التعلم ، الراحة.

٧- ترتبط مظاهر النمو ببعضها ارتباطاً وثيقاً :

النمو مظهر عام معقد وكل مظهر من مظاهره يرتبط مع المظاهر الأخرى فمثلاً النمو العقلي يرتبط مع مظاهر النمو الجسمي والانفعالي والاجتماعي .

٨ – وجود الفروق الفردية في النمو :

على الرغم من أن الأفراد يمرون بمراحل النمو بنفس التتابع إلا انهم يختلفون في ما بينهم من حيث سرعة النمو كماً ونوعاً، وحينما نتحدث عن متوسطات الأعمار مثلا لظهور الأضراس الأولى أو بداية المشي فهذه كلها متوسطات وهذا يعني أن الأفراد رغم أنهم يمرون بنفس التتابع العام من النمو إلا أن توقيت المظاهر السلوكية والجسمية يتباين من فرد إلى آخر.

٩- النمو يتخذ اتجاهاً طولياً من الرأس إلى القدمين :

يتجه النمو في التطور العضوي والوظيفي طولياً من الرأس إلى القدمين وبذلك فإن وظائف الأجزاء العليا من الجسم تسبق السفلى فمثلا يكون الطفل بداية قادراً على تحريك الرأس قبل أن يحرك يديه ثم قدميه .

١٠- النمو يتخذ اتجاهاً مستعرضاً من المحور الرئيسي للجسم إلى الأطراف الخارجية :

يتجه النمو اتجاهاً مستعرضاً من الجذع إلى الأطراف ويسبق تكوين الأجزاء الوسطى من الجسم الأجزاء البعيدة ، أي النمو المتعلق بأجهزة التنفس والهضم يسبق النمو الخاص بأطراف الذراعين والساقين .

خصائص النمو االبشري:

حتى يتوجه فهمنا لطبيعة النمو الانسانى وجهه صحيحة نعرض فيما يلى الخصائص الجوهرية لهذه العملية الهامة:

١) النمو عملية تغير:

كل نمو فى جوهرة تغير ، ولكن ليس كل تغير يعد نمواً حقيقيا ، وعموما يمكن القول أن علم نفس النمو يهتم بالتغيرات السلوكية التى ترتبط ارتباطاً منتظما بالعمر الزمنى . فإذا كانت هذة التغيرات تطرأ على النواحى البيولوجية والفسيولوجية وتحدث فى بنية الجسم الانسانى ووظائف اعضاءة نتيجة للعوامل الوراثية (الفطرة) فى اغلب الأحيان ، فان هذة التغيرات تسمى نضجاً Maturation اما إذا كانت هذة التغيرات ترجع فى جوهرها الى آثار الظروف البيئية (الخبرة) تسمى تعلماً Learing وفى كلتا الحالتين ، النضج والتعلم قد تدل التغيرات على تحسن أو تدهور ، وعادة ما يكون التدهور في الحالتين في المراحل المتأخرة من العمر.

أما التغيرات غير النمائية فانها على العكس تعد نوعا من حالة الانتقال التى لا تتطلب ثورة أو تطوراً ، فالشخص قد يغير ملابسة إلا أن ذلك لا يعنى نمواً ، فتتابع الاحداث فى هذا المثال لا يتضمن وجود علاقة بين الحالة الراهنة للشخص وحالتة السابقة ، ومن السخف بل ومن العبث ، أن نفترض مثلاً أن ملابس الشخص التى كان يرتديها فى العام الماضى نمت بالتطور أو الثورة إلى ما يرتديه الآن.

وهناك خاصية أخيرة فى التغيرات النمائية أنها شبة دائمة باعتبارها نتاج كل من التعلم والنضج ، وفى هذا تختلف عن التغيرات المؤقتة أو العارضة أو الطارئة مثل حالات التعب أو النوم أو الوقوع تحت تأثير مخدر ، فكلها ألوان من التغير المؤقت فى السلوك ولكنها ليست نموا لأن هذة التغيرات جميعا تزول

بزوال العوامل المؤثرة فيها وتعود الأحوال إلى ما كانت علية من قبل.

٢) النمو عملية منتظمة:

توجد أدلة تجريبية على ان تغيرات النمو تحدث بطريقة منتظمة ، على الأقل فى الظروف البيئية العادية ، ومن هذة الأدلة ما يتوافر من دراسة الاطفال المبتسرين (الذين يولدون بعد فترة حمل تقل عن ٣٨ أسبوعا) والذين يوضع الواحد منهم فى محضن يتشابة مع بيئة الرحم لاكتمال نموة كجنين ، فقد لوحظ انهم ينمون بيولوجيا وفسيولوجيا وعصبيا بنفس معدل نمو الأجنة الذين يبقون فى الرحم نفس الفترة الزمنية.

وتحدث تغيرات منتظمة مماثلة بعد الولادة ، وأشهر الأدلة على ذلك جاء من بحوث جيزل وزملائة الذين درسوا النمو الحركى للأطفال فى السنوات الاولى من حياتهم ، فقد لاحظوا الاطفال فى فترات منتظمة وفى ظروف مقننة ووصفوا سلوكهم وصفا دقيقاً ووجدوا نمطا تتابعيا للنمو الحركى ، ومن أمثلة ذلك ، الاتجاة من اعلى الى أسفل ، والاتجاة من الوسط الى الأطراف ، كما تظهر خصائص الانتظام فى سلوك الحبو والوقوف والمشى واستخدام الايدى والاصابع والكلام ، هذه الألوان من السلوك تظهر فى معظم الأطفال بترتيب وتتابع يكاد يكون واحداً ، ففي نضج المهارات الحركية عند الاطفال نجد أن الجلوس يسبق الحبو ، والحبو يسبق الوقوف ، والوقوف يسبق المشى وهكذا ، فكل مرحلة تمهد الطريق للمرحلة التالية ، وتتتابع المراحل على نحو موحد.

٣) النمو عملية كلية:

إذا كان النمو عملية كلية فالعلاقات الموجودة بين جوانب النمو تسير فى اتجاه واحد سواء فى طور البناء أم فى طور الهدم ، وهو ما يمكننا من التنبؤ بمعدل النمو في أحد الجوانب إذا عرفنا معدله فى جانب آخر لأن هناك تلازما فى معدل سرعة النمو فى الدورات المختلفة سرعة أو بطأ ، فإذا كان هناك طفل ينمو ذكاؤة بمعدل أعلى من المتوسط فيمكن التوقع بأن نموه الجسمى سيكون

أعلى من المتوسط أيضاً ، والعكس صحيح أيضاً فقد يكون التأخر فى أحد المهارات الحركية كالمشى مثلا دليل على التأخر فى الذكاء.

٤) النمو عملية فردية:

يتسم النمو الانسانى بأن كل فرد ينمو بطريقته وبمعدله ، ومع ذلك فإن الموضوع يخضع للدراسة العلمية المنظمة ، فمن المعروف أن البحث العلمى يتناول حالات فردية من أى ظاهرة فيزيائية أو نفسية ، ثم يعمم من هذه الحالات الى الظواهر المماثلة ، إلا أن شرط التعميم العلمى الصحيح أن يكون عدد هذة الحالات عينة ممثلة للأصل الاحصائى الذى تنتسب اليه ، وبالطبع فان هذا التعميم فى العلوم الانسانية يتم بدرجة من الثقة أقل منه فى العلوم الطبيعية وذلك بسبب طبيعة السلوك الانسانى موجود فى الفئة الاولى من هذه العلوم.

والنمو الانسانى على وجه الخصوص خبرة فريدة ، ولهذا فإن ما يسمى القوانين السلوكية قد لا تطبق على كل فرد بسبب تعقد سلوك الانسان ، وتعقد البيئة التى يعيش فيها ، وتعقد التفاعل بينهما ، ومن المعلوم فى فلسفة العلم أن التعميم لا يقدم المعنى الكلى للقانون اذا لم يتضمن معالجة مفصلة لكل حالة من الحالات التى يصدق عليها ، ومعنى هذا أن علم نفس النمو له الحق فى الوصول الى قوانينة وتعميماته ، إلا أننا يبقى معنا الحق دائماً فى التعامل مع الانسان موضع البحث فية على انة كائن فريد ، ولعلنا بذلك نحقق التوازن بين المنحى العام والمنحى الفردى ، وهو ما لا يكاد يحققة أى فرع آخر من فروع علم النفس.

٥) النمو عملية فارقة:

على الرغم من أن كثيراً من المعلومات التى تتناولها بحوث النمو تشتق مما يسمى المعايير السلوكية ، إلا أننا يجب أن نحذر دائماً من تحويل هذه المعايير الى قيود . وهذا اللفظ ضرورى وإلا وقع الناس فى خطأ فادح يتمثل فى اجبار

أنفسهم واجبار الآخرين على الالتزام بما تحددة هذه المعايير ، ويدركونة بالطبع على أنه النمط (المثالى) للنمو . ومعنى ذلك أن ما يؤديه الناس على انه السلوك المعتاد أو المتوسط ، أو ما يؤدى بالفعل (وهو جوهر المفهوم الأساسي للمعيار) يتحول فى هذه الحالة ليصبح ما يجب أن يؤدى ، ولعل هذا هو سبب ما يشيع بين الناس من الاعتقاد فى وجود أوقات ومواعيد " ملائمة " لكل سلوك. وهكذا يصبح المعيار العمرى البسيط تقليداً اجتماعياً ، ويقع الناس أسرى الساعة الاجتماعية ، بها يحكمون على كل نشاط من الأنشطة العظمى فى حياتهم بأنه فى وقته تماما أو أنه مبكر أو متأخر عنه ، يصدق هذا على دخول المدرسة أو أنهاء الدراسة أو الالتحاق بالعمل أو الزواج أو التقاعد مادام لكل ذلك معاييره ، فحينما ينتهى الفرد من تعليمه الجامعى مثلا فى سن الثلاثين فإنة يتصف بالتأخر حسب الساعة الإجتماعية ، بينما انجازه فى سن السابعة عشرة يجعله مبكراً.

وتوجد بالطبع أسباب صحيحة لكثير من قيود العمر ، فمن المنطقى مثلا أن ينصح طبيب الولادة سيدة فى منتصف العمر بعدم الحمل ، كما ان من العبث أن نتوقع من طفل فى العاشرة من عمرة أن يقود السيارة ، إلا أن هناك الكثير من قيود العمر التى ليس لها معنى على الإطلاق فيما عدا أنها تمثل ما تعود الناس عليه ، كأن تعتبر العشرينات أنسب عمر للزواج فى المعيار الامريكى ، وهذه المجموعة الأخيرة من القيود هى التى نحذر منها حتى لا يقع النمو الإنسانى فى شرك " القولبة " والجمود بينما هو فى جوهرة مرن على أساس مسلمة الفروق الفردية التى تؤكد التنوع والاختلاف بين البشر.

٦) النمو عملية مستمرة:

بمعنى أن التغيرات التى تحدث للفرد فى مختلف جوانبة العضوية والعقلية لا تتوقف طوال حياتة ، ويغلب على هذة التغيرات طابع البناء فى المراحل الأولى من العمر. بينما يغلب عليها طابع الهدم فى المراحل الأخيرة منة ، والنمو بهذا

المعنى سلسلة من الحلقات يؤدى اكتساب حلقة منها الى ظهور الحلقة التالية ، فاذا اخذنا النمو الحركى مثلا فاننا نجد أن الطفل يمر بالتطورات الآتية : إنتصاب الرأس ثم الجلوس فالحبو فالوقوف فالمشي والقفز والتسلق ، ولا بد أن تتم هذة العمليات بنفس الترتيب ، فلا يمكن أن يمشي الطفل قبل أن يقف ، ولا يمكن ان يجرى ويقفز قبل أن يتعلم المشى هكذا ، وإذا كان النمو مجموعة من الحلقات فهى حلقات متصلة فى سلسلة واحدة ، وهي سلسلة النمو أو دورة النمو(٢) .

المراجع

1) http://mnwat.net/qs/t158686.html
2) http://follarose.maktoobblog.com/1536650/

الفهرس